صــوت التــاريخ

دكتور

محمد عبد المنعم خفاجى

الطبعة الأولى

٢٠٠٤م

الناشر

دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر

تليفاكس: ٥٣٥٤٤٣٨ - الإسكندرية

صوت التاريخ

الناشـــــــر: دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر

العنـــــوان: بلوك ٣ ش ملك حفنى قبلى السكة الحديد - مساكن درباله - فيكتوريا - الإسكندرية.

تليفـــــاكس: ٥٢٧٤٤٣٨/ ٠٠٢٠٣ (٢ خط)   موبايل/ ٠١٠١٢٩٣٢٣٣

الرقم البريدى: ٢١٤١١ الإسكندرية - جمهورية مصر العربية.

E- mail

dwdpress @ yahoo.com
dwdpress @ piznas.com

Websitc

http:/ www.dwdpress.com

عنوان الكتاب: صـوت التـاريخ

المؤلـــــف: محمد عبد المنعم خفاجى

رقـم الإيـداع: ٩٢٣٩/ ٢٠٠٣

الترقيم الدولى: x - 361 - 327 - 977

بسم الله الرحمن الرحيم

"ومـا توفيقـى إلا بالله"

تصديـــر

هذا الكتاب صفحات مشرقة من تاريخ الكفـــاح العربـــى الروحـــى والفكرى والسياسى وهو بفصوله المتتالية يتحدث إليك بلغة الصديق لصديقه، وينقل إليك أروع الصفحات وأمجدها وأخلدها فى التاريخ الإنسانى.

صفحات تطوى معك العصور والأحقاب والأجيال لتشاهد التاريخ فى قمة انتصاراته كما، وفى حمى الأمانة التاريخية، والتوثيق التام للأحـــداث، وفى صداقة حميمة وأخوة كاملة يصدقك هذا الكتـــاب، وينبئـــك، بمواقـــف الأبطال والتاريخ، ويروى لك كل عجائب الأيام، وحقائق الأحـــداث، حتـــى تقول لنفسك: لقد كنت وعشت حقاً مع صانعى التاريخ، وشـــاهدت عينـــاى الكثير والكثير من سجل الماضى التليد، ومفاخر الأمس البعيد والقريب.

ومع هذه الصفحات ، وأكرم التحيات،

المؤلف

مصر ودورها الحضارى

أربعة عشر قرنا من الزمان ومصر الإسلامية تحمل لواء الحضـــارة فى العالم وتؤدى رسالتها إلى مختلف الشعوب... إلى خمسين قرنــا سـبقت ظهور الإسلام حملت فيها مصر الفرعونية لواء الحضارة وبشرت بها جميع الأمم فى شتى أنحاء الدنيا.

كانت مصر الإسلامية فى مطلع دورها الحضارى هى التى أنشـأت أسطولا بحريا لم يلبث أن صار صاحب السيادة البحرية فى البحر الأبيــض المتوسط، وكانت صاحبة الانتصارات الكبيرة فى تاريخ العالم الإسلامى: فى معركة ذات الصوارى (٣٥هـ/ ٦٥٤م)، ومعركــة حطيــن (٥٨٣هــ/ ١١٨٧م).ومعركة المنصورة (٦٤٨هـ /١٣٥٠م) ومعركة عيــن جــالوت (٦٥٨هـ - ١٢٦٠م) ومئات المعارك الكبرى الفاصلة فى تاريخ الإسلام.

مصر الإسلامية هى التى أنهت الحروب الصليبية وحـــررت أرض فلسطين من الاحتلال الصليبى، وهى التى أنهت أسطورة سيادة التتار. وأنهم الشعب الذى لا يهزم، كما أنهت من بعد أسطورة إسرائيل بحـــرب أكتوبــر ١٩٧٣.

وهى التى أعلنت قيام الخلافة الإسلامية فى القاهرة عام ٦٥٩هـــ - ١٢٦١م بعد سقوط بغداد فى أيدى التتار بثلاث سنوات.

ومصر الإسلامية هى التى قامت فيها بعد فتحها الجامعة الإســـلامية مباشرة، أول جامعة إسلامية. وهى جامعة الفسطاط الإسلامية ثم قامت فيـــها بعد ثلاثة قرون الجامعة الإسلامية الكبرى الأزهر الشـــريف (٣٦١هــــ - ٩٧٢م).

ومصر الإسلامية هى التى استضافت جميع القادة والأحرار والمفكرين ... والعلماء والأدباء، وخصصت لهم فى أرضها مناصب رفيعة، وهل ننسى الحسن بن الهيثم أو عبد اللطيف البغدادى أو ابن خلدون أو المقرى أو الزبيدى أو الأفغانى أو الكواكبى أو الكاظمى أو سواهم من آلاف العلماء والأدباء والسياسيين والمفكرين على امتداد عصور التاريخ ... ممن أووا إلى مصر، واستظلوا بظلها..

ومصر الإسلامية هى التى نشرت المدارس والجامعات فى أنحاء العالم الإسلامى وعلماؤها هم الذين تصدروا حلقات التدريس فيها فى جميع العصور التى أنشأت لطلاب العالم الإسلامى الوافدين عليها ليدرسوا فى الأزهر الشريف الأروقة والمساكن وأجرت عليهم الأموال والمرتبات، حتى تخرجوا فى الأزهر وتصدروا الحركات الإسلامية والعلمية والسياسية فى بلادهم، ومدينة البعوث الإسلامية المخصصة لشباب العالم الإسلامى الذين يدرسون فى الأزهر الشريف، بعماراتها التى تبلغ الخمسين شاهد صدق على ما تبذله مصر من أجل العالم الإسلامى.

والكتب الإسلامية التى ترسلها القاهرة إلى كل مكان فى العالم الإسلامى هى التى تغذى الحركة الثقافية والإسلامية فى كل أنحاء الدنيا.

مصر الإسلامية، هى التى رعت كل الحركات الإسلامية والفكرية والعلمية والحضارية فى مختلف أنحاء العالم الإسلامى ... ولا أنسى ليلة قضيتها فى كيرالا بالهند هى ليلة الرابع والعشرين من يناير عام ١٩٨١ حيث أقامت بلدية كيرالا حفل شاى تكريما للوفود العربية التى اشتركت فى مؤتمر الأدب العربى المعاصر المنعقد فى ممبادا. وقال رئيس حفل التكريم الهندى: إن مصر لها فضل عظيم على الحضارة العالمية، وعلى الشعوب الهندية كافة وعلى مسلمى الهند على وجه الخصوص وأن الأزهر الشريف،

صاحب الدور القيادى فى الفكر الإسلامى على امتداد العصور، وقلت نيابة عن مصر وعن الوفود العربية المشتركة فى المؤتمر أن مصر الإسلامية تحمل عبء العالم الإسلامى كله، وترفع راية الحضارة الإسلامية بل العالمية فى مختلف أنحاء الدنيا. ومن أزهرها الخالد انبثقت كل أفكار التقدم والحرية والإصلاح.

ودور مصر الإسلامية فى الماضى والحاضر والمستقبل ودورها الحضارى على امتداد الأيام ... لا يمكن أن ينسى ولا أن يشك فيه عاقل.

وقال عنها ابن خلدون فى مقدمته الشهيرة: من لم ير القاهرة لا يعرف عز الإسلام، فهى حاضرة الدنيا وبستان العالم ويضيف قائلا: إن الذى يتخيله الإنسان فإنما يراه دون الصورة التى تخيلها لاتساع الخيال عن كل محسوس إلا القاهرة.

وتحدث عنها الطبيب العربى الشهير عبد اللطيف البغدادى الذى زار القاهرة فى القرن الثانى عشر وكتب يقول أما حماماتهم فلم أشاهد فى البلاد أتقن منها وصفا ولا أتم حكمة ولا أحسن منظرا ومخبرا فأحواضها يصب فيها ميزابان حار وبارد يختلط ماءهما فى حوض صغير مرتفع عن الحوض الكبير الذى يقع ربعه فوق الأرض وسائره فى عمقها ينزل إليه المستحم فيستنقع فيه بحيث إذا دخله الإنسان لم يؤثر الخروج منه .

ومنذ أن أرسل المعز لدين الله الفاطمى قائد جيوشه جوهر الصقلى لفتح مصر فى الثلث الأخير من القرن العاشر وأمره بأن يبنى مدينته القاهرة والمدينة تتسع وتمتلئ بالعمائر الرائعة حتى أن جاء القرن الخامس عشر لم يبق فيها من الأرض الفضاء سوى النزر القليل لإقامة المزيد.

النيل فى مؤلف مصرى قديم

الجلال المحلى المفسر المشهور، المعروف بجلال الديـــن المحلـــى الشافعى، عالم مصرى عاش فى القرن الثامن، وطارت شهرته فيه.

وفى عام ٧٨٠هـ ألف كتابا صغيرا سماه مقدمة النيل السعيد وشرح أحواله، وذكر عجائبه وغرائبه، ومن أين يجىء وإلى أين سينتهى (ص٢٣).

وقد طبع هذا الكتاب فى القاهرة منذ أكثر من مائة عام ١٢٨١هـ كما جاء فى آخره، "تم طبع ما جمعه الإمام الجلال المحلى الجليل فيما يتعلق ببيان أحوال النيل، على ذمة الشيخ النجيب، الشيخ إسماعيل معتوق، الشـــهير بالعطار، بالمطبعة البهية الكائنة بخط باب الشعرية، بتصحيح الفقير مصطفى وهبى...

ويقع الكتاب فى ٣٨ صفحة من القطع الصغير، ويشتمل الكتاب على مقدمة صغيرة وعدة فصول.

وجاء فى المقدمة: روى عن سيدنا رسول الله ﷺ أنه قال "أربعـة لا تشبع من أربع: عين من نظر وأنثى من ذكر، وأرض من مطر، وعالم مـــن خبر" ولما كان إقليم مصر مشتملا على أمور عجيبة، استخرت الله تعـــالى أن أجمع فيه من الغرائب مالا ينبغى لذوى العلم إهمالها وكيف ...؟ وكلـــهم أو أكثرهم لو سئل عن نهر النيل من أين يخرج من الأرض، وفى أى مكـــان يذهب..؟ لما أجاب عن ذلك، وأنا إن شاء الله مبين لجميع ذلك، قاصدا فيـــه الاختصار".

وفصول الكتاب تبدأ بالفصل الأول فى بيان فضل النيل، ثـــم يليـــه الفصل الثانى فى المكان الذى يخرج أصل النيل منه وبيان سبب خضرتـــه،

ويلى ذلك عدة فصول عن: الأهرام، وكورة أسيوط، والحائط الممتد بالجانب الشرقى من النيل، والمقاييس لمعرفة زيادة النيل ونقصانه، والمكان الذى يذهب فيه ماء النيل، والأنهار الأربعة وهى سيحون وجيحون والفرات والنيل، والفرق بين البحر والنهر، وأنواع الماء وما يستعمل فى الطهارة ... وبذلك ينتهى الكتاب.

والكتاب ذو أهمية كبيرة لما يشتمل عليه من حقائق علمية أكدتها الكشوف العلمية الحديثة.

١-يذكر الجلال المحلى فى الكتاب نقلا عن الجغرافيين العرب من أمثال الكندى والمسعودى، أن النيل يخرج من جبل القمر خلف خط الاستواء[١] من عشر عيون، خمسة تجتمع فى بطيحة[٢]، وخمسة تجتمع فى بطيحة، ثم يجتمع بعد ذلك الماءان، فيجرى على وجه الأرض نحو تسعمائة فرسخ، وقيل ألف فرسخ، فى عامرها وغامرها، من عمران وخراب، حتى يأتى بلاد أسوان، من صعيد مصر، وإلى هذا الموضع تصعد المراكب من فسطاط مصر، وعلى أميال من أسوان جبال وأحجار وبجرى النيل فى وسطها، ولا سبيل إلى جريان السفن فيه. وهذا الموضع فارق بين مواضع سفن الحبشة فى النيل، وبين سفن المسلمين، ويعرف هذا الموضع من النيل بالجنادل والصخور، ثم يأتى الفسطاط فيقسم إلى خلجان: إلى بلاد ودمياط ورشيد وإلى إسكندرية، كل يصب إلى البحر.

---

[١] حيث يستوى الليل والنهار وأضيف إلى القمر لأنه يظهر تأثيره فيه عند زيادته ونقصانه بسبب النور والظلمة والبدر والمحاق (ص ١٧ من الكتاب).

[٢] مكان ينبطح من الأرض. والمراد بحيرة.

ويذكر أن أحمد بن طولان فى سنة نيف وستين ومائتين بلغه: أن رجلا بأعلى مصر من الصعيد، له ثلاثون ومائة سنة، من الأنباط، ممن يشار إليه بالعلم، وأنه علامة بمصر وأرضها من برها وبحرها وأخبار ملكها، وأنه ممن سافر الأرض، وتوسط الممالك، وشاهد الأمم أبيضها وأسودها، وأنه ذو معرفة بأنواع هيئات الأفلاك وأحكامها. فبعث إليه ابن طولان، وأخلى له نفسه فى ليالى وأيام كثيرة، يسمع كلامه وإيراده وحكاياته، فكان فيما سأله عن طول الأجناس وممالكهم، قال: لقيت من ملوكهم ستين ملكا فى ممالك مختلفة، كل منهم ينازع من يليه من الملوك، وبلادهم حارة يابسة، ثم سأله عن منتهى النيل فى أعلاه، فقال: البحيرة التى لا يدرك طولها وعرضها، وهى نحو الأرض التى فيها الليل والنهار مستويان طول الدهر.

٢-ويذكر الجلال المحلى أنه حكى له بعض من أقام بالحبشة أن الغمام والمطر يستمر عندهم فى أيام زيادة النيل ليلا ونهاراً فى أعلى النيل، وأن المطر يكثر جداً فى بعض السنين ويقل جداً فى بعضها، فيعرفون كثرة النيل وقلته بسبب ذلك.

٣-ويذكر الجلال أن مصر كانت وطن الأنبياء والمرسلين والأسباط وذى القرنين الإسكندر، والحكماء اليونانيين، والفلاسفة المتقدمين، وذوى الحركات والنجامات والمساحات والجبر والمقابلات وغير ذلك: كهرمس، وبقراط، وجالينوس وفيثاغورث والينوس وغيرهم.

وينقل المؤلف أوصافا شعرية جملة عن كعب الأحبار الذى يقول: من أراد أن ينظر إلى شبه الجنة فلينظر إلى مصر إذا أزهرت، وإذا اطردت أنهارها، وتهذبت ثمارها، وفاضت بحارها، وغنت طيورها؛ وعن عبد الله بن عمر حيث يقول: من أراد أن ينظر إلى شبه الفردوس فلينظر

إلى مصر، حين يخضر زرعها، ويزهـر ربيعـها، ويكـثر بـالنور أشجارها.

ويروى عن المسعودى فى مصر: هى ثلاثة اشهر لؤلؤة بيضاء، وثلاثة أشهر مسكة سوداء، وثلاثة أشهر زمردة خضراء وثلاثة أشهر سـبيكة ذهب حمراء، فإن مصر فى شهور أبيب ومسرى وتوت يركبها المـاء، فترى الدنيا بيضاء، وفى شهر بابة تنكشـف الأرض، فتصـير أرضـا سوداء وتكثر فيها الزراعات، وللأرض روائح طيبة تشبه رائحة المسك؛ وفى شهر طوبة وأمشير وبرمهات يكثر عشب الأرض ونباتها فتصـير الدنيا خضراء كالزمردة، وفى شهر برمودة وبشـنس وبؤونـة يبيـض الزرع وينور العشب فيشبه الذهب فى المنظر.

٤-ويذكر الجلال أن مساحة أرض مصر التى تـروى بـالنيل عامرهـا وغامرها ٣٠ مليونا من الأفدنة ... وإذا كان هذا صحيحا فى الزمـن القديم حيث تتشعب مياه النيل. وتذهب إلى كل مكان، فإنه غير صحيـح اليوم حيث أصبح لمياه النيل مجار وفروع محدودة.

ويقول الجلال: إن على كور مصر ١٢٠ ألف رجل معـهم المسـاحى والآلات، سبعون ألفا على الصعيد، وخمسون ألفا لأسفل الأرض؛ لحفـو الخلجان وإقامة السدود والجسور والقناطر وسد الترع وقلـع القضبـان والحلفاء وكل نبت يضر بالأرض[1].

٥- ويشير إلى مصب ماء النيل فى البحر عند شواطئ مصر[2].

٦- وما ذكره عن الفرات ودجلة وسيحون وجيحون يثير العجـب لدقتـه العلمية المتناهية[3].

---

[1] ص ٩ من الكتاب.

[2] راجع ص ٢٤ من الكتاب.

والكتاب مع صغر حجمه يثير الاهتمام، لصحة معلوماتـــه، وكـثرة إحاطته، ودقة تفاصيله، وإلمامه بالوصف الجغرافى الدقيق للنيل ومصر ومـا يتصل بهما.

والجلال المحلى بهذا الكتاب جدير بأن يوضع مع الجغرافيين العرب فى مكان بارز .

وهذا الكتاب جزء من تراثنا القومى الذى نرجو أن تمتـد إليـه يـد العناية، وأن يلقى من الاهتمام ما يستحقه، فينشر نشرا علميا محققا، ليحتـل مكانته فى المكتبة الجغرافية العربية القديمة.

---

[٣] راجع ص ٢٧ وما بعدها من الكتاب.

المسلمون اكتشفوا الكهرباء

- ١ -

الحضارة الإسلامية الزاهرة الخالدة حدث عنها، ولا حرج، وحدث عن البصرة والكوفة والفسطاط ودمشق وقرطبة وبغداد وغيرها من عواصم الإسلام، وما قدمته للإنسانية وللحضارة من أياد جليلة اعترف بها كبار المفكرين في كل مكان.

ولقد قدم المسلمون للفكر الإنساني وللبشرية جميعا كل وسائل التقدم، وأسباب الرخاء والازدهار، وعوامل النهضة في شتى جوانب الحياة: في الطب والهندسة والرياضة والفلك والفلسفة والصناعة والزراعة والتعدين والكيمياء وشتى جوانب المعرفة والثقافة والعلوم والآداب.

وإذا كانت حضارة الغرب هي السائدة اليوم، فإن حضارة الإسلام بالأمس كانت هي الرائدة والساعية إلى كل خير وازدهار ورخاء للعالم، وقد نشأت أول ما نشأت في منطقة الشرق الأوسط، بيئة الحضارات، ومجتمع المدنيات العالمية القديمة، ومركز الحضارات البشرية القديمة: العربية والمصرية والسبئية والآشورية والبابلية والفينيقية وغيرها. وكانت منطقة الشرق الأوسط على صلة بحضارات الهند والصين وفارس والروم.

وإذا كانت المواليد الحضارية في المنطقة كانت قد انقطعت، فإنها لم تفقد طاقتها الإبداعية التي ظهرت في أجلى مظاهرها في انبعاث الحضارة الإسلامية، وهي أروع حضارة قادت العالم وهزته هزاً عميقاً حقبة طويلة من الزمان.

ويتجنى كثير من الكتاب والمؤرخين الغربيين على الإسلام فيصفونه بكراهيته للمدنية عامة، وبمناهضته للفنون ومن بين هؤلاء كروبر.

ويرد على ذلك مؤرخ غربى آخر، هو توينبى الذى أنصف الإسلام فى كتاباته إلى حد ما، وكذلك فعل روجيه جارودى الذى أنصف الإسلام إنصافا كبيرا، ودان بالإسلام، وقال عنه أنه دين العالم والمستقبل.

والعراق حين ظهر الإسلام كان دعامة الإمبراطورية الساسانية سياسيا وثقافيا، وسوريا ومصر كانتا كذلك العمود الفقرى للإمبراطورية البيزنطية، ومع ذلك فقد تجلت طاقات هذه البلدان الثلاثة - سوريا ومصر والعراق - الحضارية على يد الإسلام، واستعادت فى ظلاله مكانتها باعتبارها قلب العالم الإسلامى النابض بالحياة.

وكان نقل العرب للأرقام الهندية عام ١٥٤هـ / ٧٧٣م فى عهد المنصور العباسى، وعلى يد إبراهيم الفزارى من أهم مظاهر التحولات الفكرية العالمية. كما كانت ترجمتهم للثقافات العالمية من أجلّ مآثرهم على الحياة البشرية.

وكان فى بغداد عام ٢٧٩هـ / ٨٩١م وحدها مائة دار كتب، وفى عام ٣٠٩هـ / ٩٢٢م كان فى بغداد ٨٨٦ طبيبا.

وقد قام سبعون عالما جغرافيا من المسلمين فى عهد المأمون العباسى برسم خريطة الأرض. وكان قيام بيت الحكمة فى بغداد عام ٨٣٠م/ ٢١٤هـ من الأحداث الثقافية الكبرى.

ولو أردنا استعراض مظاهر التحولات الحضارية على أيدى المسلمين لما وسعنا الحديث عن ذلك المجد الباذخ الذى ورثه الإسلام للشعب المسلم فى كل مكان، بل وللشعوب العالمية كافة...

والكهرباء التى تقود حضارة العالم اليوم والتى كشف عنها الغــرب، هل عرفها العرب فى ظلال حضارة الإسلام؟

قد يبدو أن من المجازفة أن نؤكد للقارئ أن الكــهرباء قــد عرفــها المسلمون واستخدموها أيضا فى ظلال حضارة الإسلام التى أظلت العالم من مشرقه حتى مغربه حقبا طوالا خالدات...

والأمر هو كذلك صدقا وحقا، ففى يونيو عام ١٩٣٦ عثر عمال مـد الخطوط الحديدية، فى بغداد على أوان فخارية وعلـــى أســطوانة نحاســية وقضبان حديدية يعلوها صدأ كبير، وكانت موضع فحص طويل أكــد بعــده متحف الآثار العراقية أنها بطاريات كهربائية بدائيــة، وجــاء فــى تقريــر المتحف: وجدنا شيئا غريبا إلى حد بعيد: وعاء فخارى مثل آنية الزهــــور، لونه أبيض يميل إلى الصفرة، وكانت قد انتزعت فوهته، وبالوعاء الفخـــارى أسطوانة نحاسية جرى تثبيتها بالزفت، وبداخل الأسطوانة ومعـــزول عنـــها بطبقة من الزفت قضيب حديدى يعلوه الصدأ تماما ... ومن الواضـــح أنـــه عبارة عن جهاز كيميائى، يمكن أن تضيف إليه محلولا حمضيا أو قلويا حتى يشرع فى العمل.

وهذا الثر التاريخى دليل على أن أهـــل بغـــداد كـــانوا يســـتخدمون الكهرباء، وأن العالمين فولتا وجالفانى الذين نسب إليهما اختراع أول بطارية كهربائية هما مسبوقان بمخترع مسلم قديم، وهما كذلك قد كشفا عن صنيـــع هذا المخترع المجهول وقدما هذا الصنيع للعالم على أنهما المبتكران له.

ودليلنا على أن هذه البطارية من اختراع مسلم عربى أن بغداد مدينة إسلامية المولد والنشأة، فما يقال من أن الفرس كانوا يسكنون تلك المنطقـــة

قبل ظهور الإسلام هو مجازفة فى القول، أو كلام بغير دليـــل. والبــاحثون الغربيون دائما لا يرضون أن ينسب شيء إلى حضارة الإسلام.

وفى تقرير المشرف على متحف الآثار العراقى فى بغـــداد، وهــو ألمانى واسمه ولهلم كوينيج أن هذه البطاريات الكهربائية كان يتم توصيلـــها بعضها ببعض لمضاعفة قوة التيار الكهربائى الصادر عنها، وكان الغـــرض من هذه البطاريات طلاء الحلى بالذهب عن طريق الترسيب الكهربائى.

ويقول العالم البريطانى والتروينتون لما قام بزيـــارة لبغـــداد عـــام ١٩٦٢: قل لأى عالم طبيعى أن التيار الكهربائى كان يستخدم قبل جالفـــانى بحوالى خمسة عشر قرنا. وهذه الواقعة الأثرية إذا ثبتت علميا فإن ذلك سيعد أكبر حدث فى تاريخ العلم ... على أنه لم يملك إلا إن صاح بملء فيه:

إنها خلية كهربائية بدائية ولقد نظرنا إلى قدرات البشر القدماء بكثـير من الاستهانة.

ويؤكد عالم ألمانى آخر، هو آرن أبجبريشدا أنه لا يمكن أن يعنى هذا لأى عالم سوى أنه عمود كهربائى أو بطارية، ووجود مثل هذه البطارية فى ذلك الوقت يمكن أن يساعد على كشف ألغاز فشل علماء الآثار فى كشفها.

على أن استخدام الكهرباء فى التقديم كان هو من أهم عناصر علـــم الكيمياء القديم، الذى كان يسعى إلى تحويل المعادن الخسيسة إلـــى معـــادن ثمينة.

إن المسلمين الذين قادوا مسيرة الإنسانية قرونا وأجيالا مديدة حافلـــة، هم بناة الحضارة، وهم مكتشفو الكهرباء. وهذه الحقيقة التى أكدها العلمـــاء والأثريون قرأت عنها فى كتاب بطل الأبطال لعبد الرحمـــن عـــزام حجلـــة صغيرة، ثم قرأت عنها ضمن مقال نشره راجى عنايت فى "المصور" عـــدد ٢٠/١/ ١٩٨٣ بعنوان "أسرار حيرت العلماء" ص ٣١.

والمقال ينسب البطارية إلى سكان منطقة بغداد من الفرس، وهو كلام مردود لسبب بسيط، هو إسلامية مدينة بغداد مولدًا ونشأة وحضارة.

وقرأت أخيرا فى كتاب الأديب العراقى الدكتور يوسف عز الدين "تراثنا والمعاصرة" الصفحة الثالثة والأربعين ما نصه:

"كان المهندس الألمانى وليام كوفنك فى بغداد يشرف على حجريها عام ١٩٣٠ عثر على صندوق صغير يحتوى على أشياء قديمة وعليه كتابة عربية، وعند فتحه وجد بين الأشياء التى يحتويها صفيحة كهربائية تتركب من أقطاب من الحديد والنحاس وظهر بعد الفحص أنها نموذجا للبطاريات الحديثة، وبرهن على أن المسلمين العرب اكتشفوا الكهرباء.. وأخيراً فتلك هى الحقيقة المجهولة التى كشفت عنها الأيام بمحض الصدفة، وهى تأكيد لعبقرية المسلمين والحضارة الإسلامية.

القدس فى ظلال العروبة والإسلام

- ١ -

القدس أو بيت المقدس تاريخ طويل حافل بشتى الأحداث وقد نشأت القدس قرية صغيرة عربية على أرض كنعان - أو فلسطين - حين هاجرت قبيلة عربية من جزيرة العرب قبل الميلاد بأربعة آلاف سنة، هى قبيلة "اليبوسين" وزعيمها سالم اليبوسى استقر فى هذا المكان، وأطلق عليه اسم "يور سالم" أو "يورشالم"، وعرف فيما بعد باسم "القدس" أو "مدينة القدس"، الذى كان يطلق عليه أيضا اسم "يبوس" وقد تنوسيت هذه الأسماء كلها ماعدا اسم "القدس".

ومن هذا نعرف أن القدس عربية النشأة والميلاد كما أنها عربية الحياة والتاريخ منذ ستة آلاف عام، أربعة آلاف قبل الميلاد، وألفان بعد الميلاد.

- ٢ -

وجاءت هجرة أبى الأنبياء إبراهيم الخليل عليه السلام من مدينة أور ببابل إلى أرض كنعان التى أطلق عليها اسم فلسطين باسم قبيلة إغريقية عرفت بلقب "فلسطيا" دخلت أرض كنعان غازية، وكان هذا الغزو مقارنا لهجرة أبى الأنبياء إلى أرض كنعان وذلك عام ٢٢٠٠ق.م، وولد لإبراهيم ولدان هما إسماعيل أبو العرب، وإسحاق الذى ظهر من ذريته موسى ثم يوسف عليهما السلام، وأعقب إسحاق يعقوب - وهو إسرائيل - الذى تسمى ذريته باسم "بنو إسرائيل" وحين هاجر بذريته - البالغ عددهم سبعة وسبعون شخصا - إلى مصر، سكن بإقليم جاسان - فى أرض الشرقية، وأقاموا فيها، وتناسلت

ذريته، وظلوا فى هذا الإقليم نحوا من أربعمائة عام. وكانت رسالة موسى عليه السلام، وهو الذى خرج ببنى إسرائيل من مصر إلى "سيناء" نحو عام ١٣٠٠ ق.م. وبعد هذا التاريخ بأربعين عاما تاه فيها بنو إسرائيل من أرض سيناء، دخل الإسرائيليون - اليهود - أرض فلسطين: بقيادة يشوع بن نون عام ١٢٦٠ ق. م لأول مرة وأنشأوا دويلة صغيرة باسم "إسرائيل" على الساحل، وهذا لم يمح عروبة فلسطين بحال من الأحوال.

- ٣ -

وبظهور داود وسليمان عليهما السلام (١٠١٠ - ٩٣٠ ق.م) تحولت الدويلة الصغيرة المسماة بإسرائيل إلى مملكة، كانت مدينة يبوس أو القدس عاصمة لها وأطلق عليها اسم "أورشليم" وبنى سليمان الهيكل وبعد وفاته انقسمت المملكة إلى دولتين : إسرائيل فى الشمال ويهوذا فى الجنوب. ولم تعش الدولة اليهودية على أرض فلسطين إلا ٤١٥عاما، حيث دمرها بختنصر الذى جاء من بابل وغزا الأرض التى يعيش فيها اليهود، ودمر الهيكل - هيكل سليمان - عام ٥٨٨ ق.م، وطرد اليهود من أرض فلسطين جملة وأخذ الشيوخ والأطفال إلى بابل. وبذلك محى كل أثر لليهود من أرض فلسطين.. على أن حكم داود وسليمان فى القرن العاشر ق.م، كان غزوا سياسيا وبدافع السياسة وحدها، ولم يكن دافع أن أرض فلسطين أرض عبرانية.

فليست القدس ولا أرض فلسطين كلها وطنا شرعيا لليهود:

١- لأن حياتهم السياسية فيها لم تدم أكثر من ٤١٥ عاما.

٢- ولأن العنصر اليهودى جملة طرد من أرض فلسطين منذ حكم بختنصر، وإذا كان "كورش" الفارسى قد أعادا اليهود إلى فلسطين مرة أخرى وبنوا الهيكل فإنهم لم يمكثوا فيها إلا قليلا حيث جاء الرومان

واحتلوا أرض فلسطين عام ٧٦٣ ق.م، وفى عهد القائد الرومانى "هـلد ريان" هاجم اليهود وقتل منهم الكثير وطرد الباقين من أرض فلسطين كلها وحرم عليهم دخولها، وهدم هيكل سليمان للمرة الثانية، فتشتت اليهود فى أنحاء العالم، وكان ذلك عام ١٣٤م. وهو الذى أطلق اسم إيليا على القدس.. وباعتناق الإمبراطور الرومانى عام ٣١٣م للمسيحية زاد الرومان من كراهيتهم لليهود وتعذيبهم لهم فى كل مكان. وزوجة هذا الإمبراطور هيلانة هى التى بنت كنيسة - القيامة عام ٣٣٥م. وظل الرومان يحكمون فلسطين حتى معركة اليرموك عام ١٥هـ - ٦٣٦م... ومن ذلك نعرف أنه ليست فلسطين كلها عامة ولا مدينة القدس خاصة وطنا شرعيا لليهود. وقد عاشت القدس فى ظلال الرومان ستة قرون أو يزيد فهل معنى ذلك أنها مدينة رومانية؟ كلا ثم كلا.

إن الإسلام عاش فى القدس، وعاشت القدس فى ظلال الإسلام حتى اليوم أكثر من أربعة عشر قرنا من الزمان، فكيف ننكر صبغة القدس الإسلامية، إن القدس ارتبطت بالإسلام دينا ولغة وثقافة وحضارة ولا تزال، وسوف تظل مرتبطة به روحيا أمد الآماد. . وكانت معجزة الإسراء والمعراج قبل ارتباط القدس بالإسلام سياسيا، حلقة الاتصال الوثقى بين القدس والإسلام ... لقد عاشت القدس أمجد أيامها فى ظلال الإسلام.

إن القدس لم تنزع ثوب العروبة، ولم تتخل عن الإسلام، فى يوم من الأيام، حتى فى أيام حكم الصليبيين لها، وقد بلغ نحو مائة عام.

القدس تحيا بالإسلام وفى الإسلام منذ عصر الرسالة المحمدية وحتى اليوم ... إليها كان مسرى رسول الله، ومنها كان بداية المعراج النبوى

المعظم الخالد، ومن حائط البراق الذى يطلق اليهود عليه اسم حائط المبكى بدأت رحلة المعراج الشريف إلى السماوات العلا وسدرة المنتهى.

- ٤ -

هذه هى القدس، أو بيت المقدس، العربية الإسلامية، تعلن للمـــلأ بلسان جماهيرها وزعمائها وحكمائها وعلمائها ومسلميها ومسيحيها - أنهـــا عربية إسلامية، وستظل كذلك عربية إسلامية حتى قيام الساعة.

القدس الذى تسلمها عمر بن الخطاب بيديه عام ٦٣٦م أمانة غنيـــة، وعاهده المسلمون كافة – على أن تظل القدس مدينة إسلامية إلى أن يشـــاء الله، الفاروق عمر الذى ألغى اسم "إيليا" وأطلق على هذه المدينة اسم "بيـــت المقدس"، هو الذى أحاطها بالتكريم والتبجيل.

وفى عهد الخليفة الأموى "عبد الملك بن مروان" تأكد اسم "القـــدس" عام ٦٨٥م، وهذا الخليفة بنى المسجد الأقصى ومسجد الصخـــرة، وظلـت إسلامية النزعة والصبغة والروح.

ولما دخل الصليبيون هذه المدينة عام ١٠٩٩م أرتكبوا فيـــها أشـــنع الجرائم، وقتلوا سبعين ألفا من أهلها، حتى طردهم صلاح الدين منـــها عـــام ٥٨٣هـــ، ١١٨٧م.

ومع حكم الانتداب الإنجليزى عام ١٩١٧ ظلت القدس عالية الجبهـــة قوية النزعة الإسلامية.

ومع عودة اليهود إلى فلسطين عام ١٩٤٨، ومع سقوط مدينة القدس فى أيدى اليهود فى عام ١٩٦٧، ومع تعمد الإجرام اليهودى حرق المســـجد الأقصى فى ٢٠ من أغسطس عام ١٩٧٠، ومع كل جرائم اليهود فى فلسطين وفى القدس وفى المسجد الأقصى، مع ذلك كله فلسوف تعيش القدس إسلامية الروح والمشاعر والنزعة والطابع والصبغة - إلى أبد الآباد، بإذن الله.

إن القدس منقوشة فى وجدان كل عربى منذ نشأتها عام ٤٠٠٠ ق.م، وفى وجدان كل مسلم، منذ بدأت رحلة الإسراء والمعـراج النبويـة، وإلـى اليوم، وإلى ما بعد اليوم إن شاء الله.

والمسجد الأقصى فيها هو ثالث المساجد العظمى فى الأرض وفـى الإسلام ... المسجد الحرام، والمسجد النبوى الشريف، والمسجد الأقصى.

وقد بنى آدم المسجد الأقصى، كما بنى المسجد الحرام أرضا للعبـادة والتوحيد، وجدده أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام.

يقول ابن حجر (-٨٥٢هـ). آدم هو الذى أسس المسـجد الحـرام والمسجد الأقصى. وقال ابن الجوزى : وليس إبراهيم أول من بنى الكعبة ولا سليمان أول من بنى بيت المقدس.

وارتباط المسجد الأقصى بالإسلام ارتباط وثيق لقد جاء ذكـره فـى القرآن الكريم فى معجزة الإسراء والمعراج فى قوله عز وجل فـى مطلـع سورة الإسراء:

سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحـرام إلـى المسـجد الأقصى الذى باركنا حوله.(الإسراء -١).

وفى مسند الإمام أحمد وفى الصحيحين : قال أبو ذر الغفارى قلت يا رسول الله: أى مسجد وضع فى الأرض أول؟ فقال (ﷺ) : المسجد الحـرام، قلت ثم أى؟ قال المسجد الأقصى.

ولقد صلى رسول الله (ﷺ) بالأنبياء فى المسجد الأقصى إماما فـى ليلة الإسراء، (ﷺ) إلى يوم الساعة،.

بطل الإسلام خالد بن الوليد

- ١ -

حدث عن خالد بن الوليد بطل الإسلام وسيف الله المسلول، ولا حرج، حدث عن الشجاعة والبطولة والإقدام وعظمة القيادة ولا تثريب عليك.

وإذا تحدثت عن الإسكندر الأكبر أو هانيبال أو رمسيس الثانى أو محمد الفاتح أو إبراهيم باشا أو نابليون أو روميل أو مونتجمرى، فإياك أن تتجاهل عظمة خالد بن الوليد العسكرية، وبطولاته النادرة.

عربى قريش خلده التاريخ، وحسبك أنه بطل مؤتة، وبطل اليرموك، ويعد خالد بن الوليد من الشخصيات الإسلامية البارزة التى غيرت وجه التاريخ، وهو من القادة الذين رفعوا راية الإسلام عالية، ومن أوائل الذين بنوا دولة الإسلام وأرسوا دعائمها.

وقد ولد خالد بن الوليد فى مكة المكرمة سنة خمس وعشرين قبل الهجرة - أى والرسول الأكرم فى الثامنة والعشرين - واشتهر بأبى سليمان، وهو ابن الوليد بن المغيرة من بنى مخزوم من قريش، وبنو مخزوم قوم كان لهم صيت قوى أيام الجاهلية.

وكان والده من كرام قريش، ومن أبرز مظاهر كرمه أنه نهى عن إيقاد النار فى مكة من أجل إطعام الضيف، وأمر أن توقد عنده فقط.

وكان خالد معتزا بنسبه منذ الصغر وكان قويا، نشطا ورجلا بمعنى الكلمة، برز خالد منذ صغره كفارس عظيم اعتاد على الإقدام، وتذليل الصعوبات، ومن هنا بدأت قبيلته تعتمد عليه فى غزواتها للقبائل الأخرى ودفاعها عن نفسها.

وكان خالد ذكيا، يخطط ببراعة وبعبقرية فذة، ومن أبرز المعارك التى أبدى فيها خالد براعته فى التخطيط معركة الحديبية، وموقعة الخندق، رغم أنه مشركا، حارب فى شبابه رسول الله - ﷺ - طويلا، ووقف موقف العناد والخصومة واللدد من الإسلام، ومن الرسول ودعوته ومن المسلمين الأولين فى صموده إلى أن هداه الله للإسلام فى السنة الثامنة للهجرة النبوية الشريفة، أى عام ٦٣٠م.

- ٢ -

ويقص علينا خالد بن الوليد نفسه قصة إسلامه كما رواها ابن سعد فى كتابه "الطبقات الكبرى" يقول خالد:

"لما أراد الله بى من الخير ما أراد، وقذف فى قلبى حب الإسلام وحضرنى رشدى، وقلت قد شهدت المواطن كلها على محمد - ﷺ - فليس موطن أشهده إلا وأنصرف، وإنى أرى فى نفسى أنى موضع فى غير شىء، وأن محمدا سيظهر، فلما خرج رسول الله - ﷺ - إلى الحديبية، خرجت من خيل قريش، فلقيت رسول الله - ﷺ - فى أصحابه بسعفان، فقمت بازائه فصلى بأصحابه الظهر إماما، فهممنا أن نغير عليه فلم يعزم لنا، وكان فيه خير، فاطلع على ما فى أنفسنا من الهجوم به، فصلى بأصحابه العصر صلاة الخوف، فوقع ذلك منى موقعا، وقلت: الرجل ممنوع، وافترقنا، وتحول عن سنن خيلنا، وأخذ ذات اليمين، فلما صالح قريشا بالحديبية، قلت فى نفسى: "وأى شىء بقى، أين المذهب؟ أين النجاشى؟ فقد اتبع محمدا وأصحابه آمنون عنده، أفأخرج إلى هرقل، فأخرج من دينى إلى نصرانية ويهودية؟ فأقيم فى عجم أو أقيم فى دارى فيمن بقى"؟ وبينما أنا كذلك دخل رسول الله - ﷺ - مكة فى عمرة القضاء، وتغيبت فلم أشهد دخوله، وكان أخى الوليد قد دخل مع النبى - ﷺ - فى تلك العمرة، فطلبنى فلم يجدنى، فكتب إلى

كتابا، فإذا فيه "بسم الله الرحمن الرحيم" أما بعده، فإنى لم أر أعجب من ذهاب رأيك عن الإسلام، وعقلك عقلك، أو مثل الإسلام يجهله أحد؟ وقد سألنى رسول الله - ﷺ -فقال: أين خالد فقلت: يأتى به الله، فقال: ما مثل خالد يجهل الإسلام، ولو كان جعل نكايته مع المسلمين على المشركين كان خيرا له، ولقدمناه على غيره، فاستدرك يا أخى ما فاتك، فقد فاتك مواطن صالحة، فلما جاءنى كتابه نشطت للخروج، وزادنى رغبة فى الإسلام، وسرتنى مقالة رسول الله - ﷺ - ورأيت فى النوم كأنى فى بلاد ضيقة جدبة، فخرجت إلى بلد أخضر واسع فقلت: إن هذه الرؤيا حق، فلما قدمت المدينة قلت: لأذكرها إلى أبى بكر، فذكرتها، فقال :"هو مخرجك الذى هداك للإسلام، والضيق الذى كنت فيه الشرك".

فلما أجمعت الخروج إلى رسول الله - ﷺ -قلت:"من أصحابى إلى محمد؟" فلقيت صفوان بن أمية، فقلت: أما ترى ما نحن فيه، وقد ظهر محمد على العرب والعجم، فلو قدمنا عليه فاتبعناه فإن شرف محمد شرف لنا، فأبى على أشد الإباء وقال: لو لم يبق غيرى من قريش ما اتبعته أبدا، فافترقنا وقلت: هذا رجل موتور يطلب وترا، قتل أبوه وأخوه ببدر، ولقيت عكرمة بن أبى جهل فقلت له مثلما قلت لصفوان، فقال لى مثلما قال صفوان، فقلت له: فاطو ما ذكرت لك، قال: لا أذكره.

وخرجت إلى منزلى فأمرت براحلتى تخرج إلى أن ألقى عثمان بن طلحة، فقلت: إن هذا إلى صديق، فلو ذكرت له ما أريد، ثم تذكرت من قتل من آبائه، فكرهت أن أذكره، ثم قلت: وما على وأنا راحل ساعتى.. فذكرت له ما صار الأمر إليه، وقلت: إنما نحن بمنزلة ثعلب لو صب عليه ذنوب ماء خرج، وقلت له نحوا مما قلت لصاحبيه، فأسرع الإجابة وقال: لقد غدوت اليوم وأنا أريد أن أغدو، وهذه راحلتى بفج مناخة، وواعدانى إن

سبقنى إلى يأجج أقام، وإن سبقته أقمت عليه، "ويأجج مكان على ثمانية أميال من مكة على طريق المدينة".

وخرجنا جميعا فأدلجنا سحرا.فلما كنا بالهدة إذا عمرو بن العـــاص، فقال: مرحبا بالقوم، قلنا: وبك؟ قال: أين مسيركم؟ فأخبرناه، وأخبرنا أنه يريد النبى -ﷺ - فأصطحبنا حتى قدمنا المدينة على رســـول الله - ﷺ - أول يوم من صفر سنة ثمان، فأنخنا بظاهر الحرة ركائبنا، وأخبر بنا رســـول الله -ﷺ - فقال: "رمتكم مكة بأفلاذ أكبادها""، ثم لبست مـــن صـــالح ثيـــابى، وعمدت إلى رسول الله - ﷺ - فلقينى أخى فقال : أسرع فإن رسول الله - ﷺ - أخبر بقدومك: فسر به وهو ينتظر، فأسرعت المشى، فلما طلعت على رسول الله - ﷺ - سلمت عليه بالنبوة فرد على السلام بوجه طلق، فأسلمت وشهدت شهادة الحق.

فقال رسول - ﷺ -: "الحمد لله الذى هداك، قد كنت أرى لك عقـلا رجوت ألا يسلمك إلا إلى الخير". وبـــايعت رســـول الله - ﷺ - وقلـت: استغفر الله لى كل ما أوضعت فيه من حق عن سبيل الله، فقال: "إن الإســـلام يجب ما كان قبله"، قلت: يا رسول الله - ﷺ - على ذلك، فقال: "اللهم اغفر لخالد بن الوليد كل ما أوضع من حق عن سبيلك ... ثم تقـــدم عمـــرو بـــن العاص وعثمان بن طلحة، فأسلما وبايعا الرسول - ﷺ - من يوم أســـلمت يعدل بى أحد فيما يجزيه".

- ٣ -

وفى العام الذى أسلم فيه خالد كانت معركة "مؤتة" التى أثبت فيـــها خالد عبقرية نادرة، وكانت عملية انسحابه فيها شـــبيهة بعمليـــات انســـحاب روميل فى شمال أفريقيا أمام جيوش الحلفاء فى الحرب العالمية الثانية، بـــل كانت تفوق ذلك بكثير.

حقا إن انسحاب خالد أمام جيش الروم الكبير يعد عملا عسكريا لا مثيل له، ويوصف بأنه انتصار كبير فى هيئة هزيمة، فقد بعث رسول الله ثلاثة آلاف وجعل أميرهم زيد بن حارثة فإن قتل فجعفر بن أبى طالب. فإن قتل فعبد الله بن رواحة، وكان خالد فى هذا البعث، ولما بلغوا تخوم الشام وجدوا الروم قد استعدوا لهم بمائة ألف خلاف من انضم إليهم من عرب الشام، وتردد المسلمون بين الالتحام أو الإحجام، فلم يكن هناك أى تكافؤ بين القوتين، ثم اختاروا الالتحام.. فاقتتلوا اقتتالا شديدا قتل فيه زيد بن حارثة برماح الروم، فأخذ الراية جعفر فقاتل حتى قتل، فأخذ الراية ابن رواحة، فقاتل حتى قتل، فأخذ الراية ثابت بن أرقم وصاح فى الناس، يا معشر المسلمين اصطلحوا على رجل منكم، قالوا أنت قال: ما أنا بفاعل، فاصطلحوا على خالد بن الوليد، فأخذ الراية ودافع الروم حتى جمع المسلمين. وقد كادوا أن يتشتتوا، ثم بدأ يتراجع بهم، وأرخى الليل سدوله فحال بين الفريقين والقتال، وقدر خالد الموقف، ورأى أنه لابد من الانسحاب، فأصبح وقد بدل أوضاع قواته، فجعل الميمنة فى الميسرة والميسرة فى الميمنة، والمقدمة فى المؤخرة والمؤخرة فى القلب ... حتى يلقى روع الروم أنها غيرت قوات الأمس، وأن إمدادات قد وصلت واقتتل يومه ذاك حتى الليل وهو ينسحب إلى قرية مؤتة، ثم قفل راجعا إلى المدينة، وقف الرسول - ﷺ -على منبره فأنهى إلى المسلمين أخبار جيشهم إلى أن قال: "... ثم أخذ اللواء خالد بن الوليد ولم يكن من الأمراء، هو أمر نفسه ... اللهم إنه سيف من سيوفك فأنت تنصره".

وهكذا كانت مؤتة أولى معارك خالد بن الوليد فى الإسلام، ولم يكن ممن ولاهم رسول الله - ﷺ - من أمراء الجيش، ولكن الظروف فرضته لما أدلهم الخطب وتأزم الأمر، فوجد المسلمون أن الموقف يطلبه.

واستلم خالد الراية فى القوم وقال: "لقد أصبح الأمر لى الآن.. وراح خالد يضرب أعداءه ويدفعهم عن أصحابه وتوغل شيئا فشيئا فى الصحراء ولم يتعقب خالد الروم خوفا من أن يعرفوا بحيلته ولم يتعقبه الروم خشية أن يجرهم للصحراء ويقضى عليهم.

ولما دنوا من المدينة تلقاهم رسول الله - ﷺ - وهو مقبل مع القوم على دابة، فقال أعطونى ابن جعفر، فأخذه وحمله بين يديه وقال: "يا ابن جعفر الطيار" وجعل الناس يرمون على الجيش العائد التراب ويقولون : "يا فرار فررتم عن سبيل الله" فيقول رسول الله - ﷺ -:- "... لا ... ليسوا بالفرار، ولكنهم الكرار، ما خالد إلا سيف من سيوف الله"، ومنذ ذلك الحين سمى خالد "سيف الله".

- ٤ -

وفى فتح مكة كان له دوره البارز العظيم، حيث جمع الرسول - ﷺ - أصحابه ذات يوم، وهيأهم لفتح مكة لأن قريشا تمادت فى عدوانها، ونقضت عهودها واشتدت فى تعذيب المسلمين فأخبرهم رسول الله أنه يريد فتح مكة.

فهلل المسلمون لهذه البشرى التى طالما انتظروها.

وتدافع المسلمون نحو مكة، فدخلوها آمنين، وقد نهى الرسول أصحابه عن القتال فيها.

ولم يحدث قتال إلا من صوب خالد، ولما وصل خبر هذا إلى الرسول - ﷺ -قال: ألم أنه عن القتال؟ قالوا إنه خالد "قوتل فقاتل"... فقال ... قضاء الله خير.

"لا تغزى قريش بعد هذا اليوم إلى يوم القيامة" ودخل خالد مكة وأسرع إلى الكعبة يحييها ويطوف حولها.

وبعد وفاة الرسول - ﷺ -ارتد عدد كبير من المسلمين عن الإسلام، وعادوا إلى ما كانوا عليه قبل الإسلام، وكان أبو بكر الصديق -رضي الله عنه- قد تولى الخلافة فأصر على محاربة المرتدين وسار فى هذا ومعه خالد بن الوليد الذى كان مصرا على تخليص المسلمين من هؤلاء المرتدين، فتوجه إلى مسيلمة الكذاب الذى أدعى النبوة فى بنى حنيفة باليمامة، وقضى خالد فى هذه المعركة على عدد كبير من المرتدين.

وهكذا أحب أبو بكر خالدا، فلم يحاول أن يضعف شأنه، لأنه رأى فيه القوة والشجاعة والإقدام والبطولة وحب التضحية، وإيثار نفسه لتكون الفداء فى كل المعارك التى خاضها.

وآمن المسلمون من حينئذ ببطولة خالد، ورددوا "إنه سيف من سيوف الله" وعمل خالد على نشر رسالة الإسلام بقوة وشجاعة وبسالة معدومة النظير، وعندما انتشر الدين الإسلامى فى الجزيرة العربية، وعزم أبو بكر الصديق -رضي الله عنه- أن يفتح العراق ويغزو دولتى الفرس والروم ، وكتب أبو بكر الصديق إلى خالد فدخل العراق من جنوبها كما كتب إلى عياض بن غنم ليدخل العراق من شمالها، ثم يسرعان إلى الحيرة، ووضع خالد خطة محكمة للغاية فاستولى على عدد كبير من المناطق، وتابع فتوحه، وكان صيته يسبقه أينما ذهب، فأسرع الأمراء والملوك يعدون العدة لمقاومة هذا الفارس العربى المسلم.

وكان أبو بكر الصديق سعيدا للغاية بما يحققه المسلمون من انتصارات، تحت قيادة خالد بن الوليد وتابع خالد فتوحاته. وانتصاراته فى العراق، ومضى فى فتوحاته يدعم المجاهدين، ويعمل فى بناء الدولة الإسلامية، ويوسع رقعتها، وينشر دين الله وشريعة العدالة والمساواة، وفتح

الحيرة وغيرها، وجاءه أمر من خليفة رسول الله - ﷺ -بالتوجه إلى الشـام فنفذ الأمر مدركا حرج الظروف التى تواجه قوات المسلمين هناك، وذات يوم بلغ أبا بكر انتصار خالد فى موقعة من المواقع، وما أحرزه الأبطـال مـن غنائم، فقال الخليفة أبو بكر -رضي الله عنه- عجزت النساء يلدون مثل خالد. وكـان وقت معركة اليرموك فى الشام، واستعد خالد للقاء الروم فى موقعة فاصلـة، وكانت جيوش المسلمين قد استعدت لهذا اللقاء ، وكـان القـادة المسـلمون أربعة: عمرو بن العاص، ويزيد بن أبى سفيان، وأبو عبيدة بـن الجـراح، وشرحبيل بن حسنة، وكان عدد جيش المسلمين خمسة وأربعين ألفا.

وكان عدد جيش الروم مائتين وأربعين ألفا، ووصـل خـالد مـن بصرى إلى الموقعة واجتمع بالقادة، واستفسر منهم عن جيش الروم، فأخبروه أنهم يشعرون بكثرة الحركة فيهم منذ أيام.

وسأل خالد ما أعددتم لهم؟ فكان الجواب أنه كل قائد منهم استعد لـهم فى موقفه، ثم سألوه رأيه فيما يصنعون.

وأدرك خالد بغريزته الحربية أن المعركة لابد أن تبتدئ بقيادة منفردة وأقنعهم بهذه الفكرة، وحسم الموقف عن طريق تنـاوب القيـادة، إلا أنـهم أجمعوا على أن يكون هو قائدهم إلى النصر.

وكانت قيادة خالد هى أول خطوة فى طريق تحقيق النصر، وجعـل خالد أبا عبيدة على قلب الجيش وعمرو بن العاص وشرحبيل بن حسنة علـى الميمنة، وجعل فى الميسرة يزيد بن أبى سفيان.

ولما نشب القتال اصطدم بالقائد الرومى الذى يقدم فرقة أرمنية تبلـغ أثنى عشر ألفا من صف الروم، ثم نادى القائد خالد ليخرج إليه، وخرج إليـه خالد بن الوليد وقال له : لم سميت "سيف الله المسلول"؟

فأجابه خالد: إن الله بعث فينا نبيه - ﷺ - فهدانى الله فتبعته وقال لى: "أنت سيف من سيوف الله" فسميت لذلك سيف الله".

ثم حدثه خالد عن الإسلام، ثم قال له: أتريدنى أن أسلم؟ قال له خالد: نعم. قال له: وما منزلة من يجيبكم ويدخل دينكم؟ فأجاب خالد: أن يكون واحدا منا.

وسأل: وهل له مثلكم من الأجر والذخر؟ فأجاب خالد: نعم وأفضل، لأننا نتبع الله ولأننا اتبعنا نبينا وهو حى يخبرنا بالغيب، ونسمع منه القرآن فمن دخل منكم الإسلام بنية وصدق كان أفضل منا عندئذ، قاله له القائد الرومى: هيا علمنى الإسلام فأخذه خالد وتوضأ وصلى ركعتين وشارك المسلمين قتالهم ضد الروم.

وعندما حل الليل على الجيش، جاءهم البريد بخبر وفاة أبى بكر الصديق، فحزن خالد كثيرا، وعين بعد ذلك الخليفة عمر بن الخطاب، وأرسل عمر خطابا بتعيين أبى عبيدة أميرا لجيوش المسلمين، فالتزم خالد الصمت لتحقيق صالح المسلمين، وتكتم خالد الخبر عن المسلمين حتى لا تنخفض روحهم المعنوية.

وفى صباح اليوم التالى كر المسلمين على الروم، وتقدموا نحوهم لا يهابون الموت، حتى حققوا النصر العظيم.

وبعد انتهاء المعركة امتثل خالد بن الوليد إلى الرسالة التى أرسلها عمر بن الخطاب إليه بأن يكون تحت إمرة أبى عبيدة بن الجراح.

اتجه المسلمين لفتح دمشق، وقاموا بتطويقها من جميع النواحى. وتم وضع خطة نفذها خالد ببراعة حتى أصبحت دمشق مدينة مفتوحة للمسلمين.

واستمر خالد فى مسيرة النصر العظيم فى فتح بلاد الشام حيث أسهم فى ذلك بنصيب موفور، وقد شهد خالد العديد من المعارك الحربية، وكان

يتمنى الموت والشهادة وهو يجاهد فى سبيل الله، وقد أصيب خالد بالعديد من الإصابات فى مناطق متعددة من جسده، لكنه لم يمت، وهو البطـــل، علــى أرض المعركة مع أنه طلب الشهادة أكثر من مرة.

ومات خالد بن الوليد فى خلافة عمر بن الخطـــاب -ﷺ- مـــات خالد بعد أن جاهد حق الجهاد، وأدى واجبه أفضـــل أداء، وكـــانت وصيتـــه الأخيرة للخليفة عمر أن يقدم سلاحه وفرسه هدية للجهاد المقـــدس، وحـــزن الخليفة على موت خالد كثيرا، كما حزن المسلمين على البطل العربى المسلم الشجاع، الذى هز الدنيا بانتصاراته وببطولاته.

أما النقاد العسكريون فأطلقوا عليه لقب "القائد الذى لم يغلب".

وبحق لقد كان بطل الإسلام خالد بن الوليد القائد الذى لم يغلب فـــى معركة قط، وكان العبقرية الحربية التى اهتز لعظمتها العالم، ودوت بذكـــر انتصاراتها الدنيا ، وحفل بأخبار بطولاتها الزمان ... رحمه الله.

النموذج الأكمل للإنسان

- ١ -

آمنت بالله!...

آمنت بالإسلام!...

آمنت بالقرآن!...

آمنت بأن الله الذى أنزل المعجزة على رسوله : محمد بن عبد الله ، هو الذى صنع المعجزات الكبرى فى تاريخ الإسلام.

لو أن إنسانا جاء ليقول لنا اليوم:

إن أمة مسلمة فقيرة قليلة العدد؛ لا تعرف التقدم الحضارى ولا التكنولوجيا الحديثة، وليس فيها صناعات، ولم تتأصل فيها التقاليد العسكرية، وليست عندها جيوش حربية متطورة، كالأردن مثلا، وقفت أمام أعظم دولة معاصرة كأمريكا وهزمتها، ووقفت أمام قوة عالمية كبرى كروسيا ودمرتها...

لما صدقناه ... ولقلنا: إن هذه خرافة، ما بعدها من خرافة ... وأسطورة من نسج الخيال وحده ... فلو حدث ذلك لكان معجزة من الله، وعملا خارقا من نسج السماء...

ولقد حدث ذلك فى التاريخ، بعد نزول الرسالة بقليل:

ففى خلال ما لا يزيد عن أربعين عاما من بدء نزول الوحى على: محمد بن عبد الله فى غار حراء بمكة؛ كان الإسلام قد طوى - تحت سنابكه - أعظم إمبراطورية عرفها التاريخ؛ وهى الإمبراطورية الفارسية، واستولى على أملاك الإمبراطورية الثانية وهى الإمبراطورية الرومانية الشرقية؛ ففتح

مصر والشام وليبيا والمغرب كله، واجتاح سهول آسيا الصغرى، ووقف على أبواب العاصمة الرومانية "بيزنطة" التى لم يبق لها إلا أجزاء قليلة فى أوروبا على شاطئ البحر الأسود والبحر الأبيض.

ولقد كان انبعاث الإسلام – على هذه الصورة الغريبة – عملا معجزا، حطم كل الأقيسة التاريخية ! ... كما يرى المؤرخ الإنجليزى المعاصر "توينبى" ووقف حياله العالم – منذ ذلك التاريخ، حتى اليوم – مبهورا مذهولا، لا يدرى : كيف حدث، ولا كيف كان؟!

فلقد أصبحت الدولة الإسلامية – بعد فتح العراق وفارس والشام ومصر وغيرها، وارثة للإمبراطورية الساسانية، مثلما ورثت ملك الدولة الرومانية!... ثم تحولت – بعد قليل – إلى إمبراطورية عالمية كبرى، فاقت جميع الإمبراطوريات العالمية القديمة : البارثية، السلوقية، الأخيمينية، البابلية الجديدة، الأكادية، الفارسية، الرومانية.

فما هى الأسباب التى ساعدت على قيام تلك المعجزة؟!

لا سبب أبداً إلا الإسلام! ... وإلا القرآن!...

وإلا صنع المعجزة التى هى من صنع السماء!!

– ٢ –

آمنت بالله!...

آمنت بالإسلام!...

آمنت بالقرآن!...

لقد عاشت اللغة العربية لغة أمة فقيرة فى الجاهلية– وقبل ظهور الإسلام – لغة محدودة يتكلم بها عدد قليل من الناس !...

ونزل القرآن – وهو كتاب عربى مبين – يحمل الهداية والنور إلى الأرض، ويؤدى إلى الإنسانية رسالة السماء: ورسالة الإسلام!...

ومرت بلغة القرآن الكريم سنوات وسنوات!...

وإذا هى اللغة العالمية الأولى، يتكلم بها الخليفة الأموى فى عاصمته دمشق، وتتكلم بها جيوشه وولاته من الصين إلى شاطئ المحيط الأطلسى، ويتعلمها أكثر سكان العالم، ويقبلون عليها، ويتخذونها لغة جديدة لهم، وتصبح هى اللغة الرسمية لجميع شعوب العالم الإسلامى!...

ويترك الكثير من الشعوب لغتهم الأصلية، لأنهم اختاروا مكانها اللغة العربية!..

وتموت بعض هذه اللغات القديمة، وتبقى بعضها بين الموت والحياة، وتحدث ظاهرة فذة جديدة، فى تاريخ اللغات؛ لم تحدث – من قبل – لأية لغة أخرى، ولا يمكن أن يحدث مثلها للغة من اللغات إلا بعد مرور أجيال وقرون، وأحقاب ودهور، وأعمار وعصور!...

فماذا حدث؟ وكيف حدث ذلك؟

إنها معجزة للغة القرآن ! معجزة من الله!..

لا سبب ترجع إليه : إلا الإسلام وحده!..

وإلا القرآن الكريم: كتاب الإسلام الخالد، ووحى الله المبين، المنزل من السماء، على خاتم المرسلين : محمد بن عبد الله ﷺ .

-٣-

آمنت بالله!...

آمنت بالإسلام!...

آمنت بالقرآن!...

لقد عاش العرب أجيالا مديدة فى الجاهلية أمة بدوية، ومجتمعا صحراويا لا يعرف للحضارة معنى !... وظل كذلك قبيل وبعد ظهور الإسلام!...

وإذا هذا المجتمع البدوى الأمى، تقوم فيه ثقافة من أعظم الثقافات ، فتنشأ فيه البحوث والعلوم والمعارف، وتقوم فيه الجوامع والجامعات، والمدارس والمكتبات، وحلقات العلم!...وينتقل من مرحلة البداوة إلى مرحلة الحضارة، فى أمد محدود وزمن معدود!...

ومن شأن مثل هذا الانتقال أن يحتاج إلى قرون وأجيال؛ ولكنه حدث فى أمد لا يمكن لخيال شاعر أن يتصوره؛ فقامت المدن الكبرى، والجامعات المثلى، فى كل مكان من أنحاء الوطن الإسلامى الكبير!... ,أبدع العلماء المسلمون إبداعا علميا لم يكن له نظير فى تاريخ الحضارات القديمة!... وقامت الصناعة، وازدهرت التجارة، وتقدمت الزراعة، وشقت الطرق، ونظم البريد، وأنشئت الجيوش، وقامت المصانع، واستخرجت المعادن، واستغلت المناجم!..

وهكذا ازدهرت الحضارة بفضل الإسلام العظيم، والقرآن الحكيم!...

وحينما كان الناس فى عاصمة شارلمان – لا الناس كلهم، ولكن الإمبراطور وحاشيته وحدهم – يتعلمون الحرف، ليعرفوا القراءة والكتابة، كان العلماء المسلمون يجلسون فى بيت الحكمة، فى بغداد، ليترجموا الثقافات العقلية القديمة من اللغات العالمية الكبرى البائدة، إلى اللغة العربية: لغة الثقافة والحضارة، حينذاك.

وكانت البحار تموج بالسفن والأساطيل التجارية والحربية الإسلامية المتفوقة، وكان التجار المسلمون يسيرون إلى كل مكان فى العالم، وكانت الأموال الغزيرة تتدفق على ميناء البصرة، وفى جيوب التجار من أهلها!..

وقد اشتهر البصريون بأسفارهم البحرية فى المحيط الهندى، وفى البحر الرومى: "الأبيض المتوسط" وفى الخليج العربى، وبحر القلزم، وفى غيرها من البحار؛ فازدادت حضارة البصرة، واتسع البصريون فى المال والتجارة، وأصبحت المدينة أكبر ما تكون عمرانا، وأكثر ما تكون ثراء!...

وفى خلافة بنى العباس، كان الخلفاء لا يولون عليها إلا أميرا من أمراء البيت العباسى ... وفى عام ١٧٦هـ دعا أميرها: جعفر بن سليمان ابن على، خليفة المسلمين: هارون الرشيد لزيارة البصرة، فقدم إليها. ويصف الجاحظ[١] ما قدم إلى الرشيد من طعام!..

وحدث عن موكب الخليفة فى هذه المدينة وعن عظمتها ولا حرج!...

ولما وليها محمد بن سليمان العباسى، أهدى إلى الخيزران: زوج الرشيد، مائة وصيفة، فى يد كل منهن جام من ذهب، وزنه ألف مثقال، مملوء مسكا[٢].

هذه هى مدينة البصرة وحضارتها!...

وحدث ولا حرج، عن : بغداد ودمشق، والقاهرة، والقيروان، وقرطبة، وفاس ومكناس، وعن جرجان والرى والرقة، وعن مكة والمدينة والطائف، وعما بلغه المجتمع الإسلامى من حضارة شاهقة؛ لم يعرف التاريخ لها مثيلا من قبل، ولا من بعد!..

فكيف كان ذلك؟! وكيف حدث مثل هذا التطور الحضارى الغريب فى زمن معدود، وأمد محدود؟!

لا سبب يفسره، إلا الإسلام وحده!.. وإلا القرآن معجزة الله الخالدة!.. وإلا صنيع السماء ومعجزتها الكبرى: رسالة محمد بن عبد الله ﷺ.

- ٤ -

آمنت بالله!...

---

[١] ١٨٧ الحيوان – نشر الحلبى.

[٢] (١١٥، رسائل الجاحظ– نشر السندوبى).

آمنت بالإسلام!...

آمنت بالقرآن!...

لقد كان ما بين حصار المدينة فى غزوة الخنـــدق، وبيـــن معـــارك المسلمين فى الشام مع الروم، سنوات معـــدودات، مـــرت خلالـــها أحـــداث وأحداث.

هذا كتاب من محمد بن عبد الله ورسوله، إلى كســـــرى إمـــبراطور الدولة الفارسية:

"أدعوك بدعاية الإسلام، فإنى رسول الله إلى الناس كافة".

وكسرى فى مجلسه، ورسول محمد بن عبد الله جالس فى المجلـــس، والكتاب يقرأ على مسامع الإمبراطور العظيم، حين كان الســـفراء يوقعـــون معاهدة سلام بين كسرى وهرقل: الإمبراطور الرومانى المهيب!..

وإذا كسرى يغضب، ويمزق الكتاب، ويرمى به، لأنه رأى فيه اســـم: محمد قبل اسمه: "من محمد بن عبد الله إلى كسرى أبرويز عظيم فارس".

ويصيح قائلا:"يكاتبنى بهذا!!! ... وهو عبدى!.."

ثم كتب لعامله على اليمن:

"أبعث إلى هذا الرجل الذى يزعم فى الحجاز أنه نبى".

وبلغ الرسول – صلوات الله عليه وسلامه– ما حدث؛ فرفع يديه إلـــى السماء، وقال: "اللهم مزق ملكه، كما مزق كتابى".

ومزق الله ملكه، وورثه المسلمون العرب فى اقل من سنوات!

وهذه جيوش المسلمين – فى الشام – تسير من فتح إلى فتح، ومـــن نصر إلى نصر؛ وأمامهم أضخم الفرق العسكرية الرومانية المدربة، وعليـــها قترة الهزيمة، وعار الخذلان!..

ويأسر الروم فى معاركهم جنديا عربيا ... أهله فى حزن عليـــه!...

ويعلم الخليفة : عمر بن الخطاب بالأمر. فيبعث إلى هرقل - الإمـــبراطور الرومانى - الذى يقود بنفسه المعارك ضد المسلمين، يبعث إليه برسالة، يقول فيها:

"بسم الله الرحمن الرحيم"، الحمد لله رب العالمين، والصـــلاة علـــى رسوله. من عبد الله : عمر بن الخطاب، إلى هرقل ملـــك الـــروم: أطلقـــوا الأسير المسلم: عبد الله بن حذافة، حين وصول كتابى هذ إليكم...

فإن فعلتم، رجوت الله أن يهديكم الصراط المستقيم!...

وإن لم تفعلوا، فإننى أبعث إليكم رجالا لا تلهيهم تجارة ولا بيع عـــن الجهاد فى سبيل الله".

ويقرأ هرقل الرسالة، ويرتعد فرقا وخوفا، ويأمر بـــإطلاق ســـراح الأسير، ويستقبله مكرما له، ويبعث معه بهدية ثمينة إلى عمر!...

وتتوالى الهزائم على جيش هرقل، ويغادر أرض الشام باكياً حزينـــاً، إلى إنطاكية!..

ثم يأمر الإمبراطور بعقد مجلس حربى أعلى.. وينعقـــد المجلـــس، ويقبل هرقل على قواده، يقول لهم: "ويلكم!.."

أخبرونى عن هؤلاء القوم، الذين يقاتلونكم: أليسوا بشراً مثلكم؟

قالوا: بلى

قال: فأنتم أكثر، أم هم؟

قالوا: بل نحن أكثر منهم - أضعافاً - فى موطن!

قال: فما بالكم تنهزمون؟!

فرد على الإمبراطور أكبر قواده، وقال له:

أيها الملك : هزمنا!...

وانتصروا: من أجل أنهم يقومون الليل!...

ويصومون النهار !... ويوفون بالعهد!...

ويأمرون بالمعروف!.. وينهون عن المنكر!... ويتناصفون بينهم!...

ومن أجل أنا نشرب الخمر!... ونزنـــي!... ونركـب الحـرام!...

وننقض العهد، ونغضب !... ونظلم!... ونأمر بالسخط!...وننهى عما يرضى الله ..! ونفسد في الأرض!...

كيف حدث ذلك، وكيف كان هذا التطور السياسى والدولى العجيـب، لأمة الإسلام، ولدولة المسلمين، فى زمن يسير؟

ليس هناك من سبب إلا الإسلام !... وإلا القرآن!...

وإلا أن ما حدث كان معجزة من السماء، وأمرا من صنع الله سبحانه وتعالى: أحكم الحاكمين!...

– ٥ –

آمنت بالله!...

آمنت بالإسلام!...

آمنت بالقرآن!...

انظروا أيها الناس: يا ورثة الإسلام. يـا أبنـاء العـرب الأوليـن الفاتحين. انظروا إلى الدين: كيف بدأ؟ وإلى أى شىء آل أمره؟!

يروى عفيف بن قيس الكندى، فيقول:

"كنت – فى الجاهلية – عطارا !.. فقدمت مكـة!... فـنزلت علـى العباس بن عبد المطلب...

فبينما أنا جالس عنده، أنظر إلى الكعبة، وقد تحلقـت الشـمس فـى السماء ... أقبل شاب كأن وجهة القمر، حتى رمى ببصره إلى السماء، فنظر إلى الشمس ساعة!...

ثم أقبل حتى دنا من الكعبة، فصف قدميه حتى يصلى!...

فخرج على أثره فتى كأن وجهه صفيحة يمانية، فقام عن يمينه!...

فجاءت امرأة متلففة فى ثيابها، فقامت خلفهما!...

فأهوى الشاب راكعا، فركعا معه!...

ثم أهوى إلى الأرض ساجدا، فسجدا معه!...

فقلت للعباس : يا أبا الفضل : أمر عظيم!

فقال : أمر - والله - عظيم!... أتدرى من هذا الشاب؟

قلت : لا. قال: هذا ابن أخى : محمد بن عبد الله..

أتدرى: من هذا الفتى؟ قلت : لا ...

قال: هذا ابن أخى : على بن أبى طالب...

أتدرى . من المرأة؟ قلت : لا ..

قال : هذه ابنة خويلد: هذه خديجة : زوج محمد هذا!.. وإن محمد هذا يذكر أن إلهه : إله السماء والأرض، أمره بهذا الدين، فهو عليه كما ترى، ويزعم أنه نبى!..

وقد صدقه على قوله: على ابن عمه – هذا الفتى، وزوجه: خديجة – هذه المرأة...

هذه هى أول صورة للإسلام، فى بدء أمره.

أما الصورة الثانية؛ فهى ما يرويه المؤرخ العربى الكبير: "أبو الفداء" - فى تاريخه – يصف عظمة خلافة الإسلام فى بغداد عام ٣٠٥، وسفراء قيصر الروم يدخلونها، حاملين رسالة من ملكهم؛ إلى الخليفة العباسى: المقتدر بالله!...

يقول أبو الفداء: فى وصف الموكب الرسمى، الذى ساروا فيه إلى قصر الخليفة، وما كان عليه القصر من عظمة:

"قدم رسل ملك الروم إلى بغداد، فلما استحضروا عبئت لهم العساكر، وصفت الدار – قصر الخلافة – بالأسلحة وأنواع الزينة!...

وكان العسكر المصفوفون، حينئذ – مائة ألف وستين ألفا، ما بين راكب وواقف!...

ووقف الغلمان ذو الزينة الباهرة، والمناطق المحلاة!...

ووقف الخدام بذلك، وكانوا سبعة آلاف : أربعة آلاف خادم أبيض، وثلاثة آلاف خادم أسود!....

ووقف الحجاب كذلك، وهم حينئذ سبعمائة حاجب بأعظم زينة!...

وزينت دار الخلافة؛ فكانت الستور المعلقة عليها، ثمانية وثلاثين ألف ستر، منها اثنا عشر ألفا وخمسمائة من الديباج المذهب!...

وكانت البسط اثنتين وعشرين ألفا!...

وكان هناك مائة سبع، مع مائة سباع!...

وكان من جملة الزينة شجرة من ذهب وفضة!...

وشاهد الرسل من العظمة ما يطول شرحه!...

وأحضروا بين يدى المقتدر!... وصار الوزير يبلغ كلامهم إلى الخليفة، ويرد الجواب عن الخليفة...

سبحان الله! ماذا حدث؟ وكيف كان ذلك؟!

إنه الإسلام !.. إنه القرآن!... إنها المعجزة من السماء!...

لا شيء ! لا سبب!

لا أمر نعلل به هذه الظواهر الفذة فى تاريخ الإنسان والحضارة إلا سببا واحدا: هو أن الإسلام والقرآن، وهذا الدين العظيم، خرج للناس طبقات جديدة من المسلمين: كانوا هم النموذج الأكمل للإنسان على ظهر الأرض!...

النموذج العظيم ، الذى لم ير التاريخ له مثلا!

النموذج الرفيع الذى بنى قواعد الدين والملك والثقافة والحضارة فى دولة الإسلام، وفى العالم كله على اسمى وأنبل وأطهر دعامة : من توحيد الله وعبادته، ومن فضائل الإنسان الخيرة النبيلة فى نفسه، ومن الإنسانية المهذبة المطهرة التى بنت للحياة منارة رفيعة كانت هى دولة الإسلام!... وعقلا حرا كريما عظيما : كان هو المسلم!...

ووجدانا حيا يزخر باسمى مشاعر الحق والعدل والإحسان، وهو : المجتمع الإسلامى الكبير، الذى كان أهلا لخلافة الله فى الأرض؛ فورثه الله ملك العالمين!... وورثة الأرض ومن عليها !... وورثة الآخرة ونعيمها!...

إنه الإنسان المسلم الذى جلس إلى مائدة القرآن!...

وتخلق بأخلاق القرآن!... وتأدب بآداب الإسلام!...

وكان رسوله محمد ﷺ خلقه القرآن!...

جلنار ... ووطنها مصر

جلنار ... هذه الملكة المسلمة العظيمة زوجة السلطان الملك المظفر قطز.. قد خلد اسمها على مر العصور.

وبحسبها أنها بنت السلطان محمود الغزنوى ملك بخارى وفاتح الهند، وبحسبها كذلك أنها زوجة سلطان مصرى عظيم هو السلطان قطز.

وبحسبها كذلك أنها وقفت فى أكبر معركة فى التاريخ تقاتل فى سبيل مصر حتى خرجت صريعة شهيدة فى ميدان القتال فى رمضان فى الرابع والعشرين منه من عام ٦٥٨هـ – الثالث من سبتمبر عام ١٢٦٠م.

وكان العالم الإسلامى يمر فى هذه الفترة بأقسى مرحلة من مراحل تاريخه، مرحلة لم تدر بخلد أحد ولا كان يتصورها إنسان سقطت بغداد تحت سنابك خيل المغول، وتهاوى العرش العباسى وانتهت الخلافة العباسية بعد خمسة قرون من حياتها ، والمغول شعب دموى متوحش عاش فى إقليم منغوليا شمالى – الصين، وكانت بدايته على يد جنكيز خان، الذى اتخذ مدينة "قره قورم" عاصمة له، وأعلن وجوب الخضوع التام لإرادته، والانطواء إلى رايته والذهاب معه فى جميع حروبه، والعقوبة الشديدة لكل مخالفة فردية أو قبلية، ولقب نفسه "الخان الأعظم" وصار ملك المغول يشمل الصين وبلاد ما وراء النهر، وسقطت الإمبراطورية الصينية والدولة الخوارزمية وإيران أمام جيوش المغول المندفعة كالتيار الجارف، وصارت تركستان وخرسان وأفغانستان وأذربيجان وجورجيا وجنوب روسيا فى قبضة يد المغول.

واستمر الزحف المغولى حتى وصل إلى قريب من بغداد عاصمة الخلافة العباسية وأخذ المغول يقذفون قلاع بغداد وحصونها بالحديد والنار

أربعين يوما حتى سقطت فى أيديهم وصار الخليفة رهن مشـــيئتهم وخـــرج لمقابلة هولاكو حفيد جنكيز خان ومعه أقاربه ليسلم مدينة بغداد لهذا المغولـــى المتوحش المدمر، وكان يوم الأحد الرابع من صفر عام ٦٥٦هـــ – الثـــانى عشر من فبراير عام ١٢٥٨م يوماً حزينا لم ير التاريخ مثله.

وسار هولاكو بجيشه الكبير لفتح مصر والدمار والخراب يسير خلفه وأمامه أينما سار.

وبعث هولاكو برسالة إلى سلطان مصر يحملـــها رســـول مغولـــى يصحبه أربعون مغولياً.

تقول الرسالة: من ملك الملوك شرقاً وغرباً الخاقان الأعظـــم إلـــى سلطان مصر.

إن الله قد منحنا ممالك الأرض جميعاً وكل من يتمرد علينا ويعصـــى أمرنا نقضى عليه مع نسائه وأبنائه وأقاربه والمتصلين بـــه وعلـــى بـــلاده ورعاه، كما بلغ ذلك أسماع الجميع، أما صيت جيشنا الذى لا حصر له فقـــد بلغ غاية الشهرة، فإن كنت مطيعا كخدم حضرتنا فأرسل إلينا الجزية، واقـــدم بنفسك وإلا فكن مستعداً للقتال "مجلد ٢ جـــ١ ص ٣١٠ جـــامع التواريـــخ لرشيد الدين الهمذانى".

وفى أخر الرسالة تهديد لشعب مصر، جاء فيه: يا أهل مصر، أنتـــم قوم ضعاف، فصونوا دماءكم، ولا تقاتلونى أبداً فتندموا.

وكان سلطان مصر يومئذ هو الملك المظفر سيف الدين قطز، ثـــالث سلاطين المماليك، الذى تولى العرش فى السابع من ذى القعدة عام ٦٥٧هـــ من شهور قلائل.

وفجأة تصل هولاكو رسالة عاجلة تنبئه بأن شقيقه الأكبر الإمبراطور المغولى مانجو خان قد مات، فيترك الميدان، ويعود إلى عاصمة بلاده ويترك قيادة الجيش الذاهب إلى مصر لقائده نائبه وصهره "كيتوبوقانوبان".

وتصل الرسالة إلى يد قطز فى القاهرة فى قصره بقلعة الجبل، فيعقد مؤتمراً حربياً يتخذ قراراً بالحرب، لنتوجه جميعا إلى ساحة المعركة فإذا ظفرنا فهو المراد، وإلا فلن نكون ملومين أمام الله والناس. ويصبح الناس ليروا: رسل هولاكو مصلوبين فى ميادين القاهرة إعلانا للحرب.

ويتحرك جيش مصر، وعلى رأسه سلطان مصر قطز، وقائده بيبرس فى الخامس عشر من شعبان من عام ٦٥٨هـ، والجميع يرددون الله أكبر وفى عين جالوت كانت المعركة الفاصلة، فى ٢٥ من رمضان عام ٦٥٨هـ – ٤ سبتمبر ١٢٦٠م.

قطز يقف فى ساحة المعركة، يقاتل الأعداء، وجيش المغول يترصده وسهامهم تتناشه من كل جانب، وتسرع جلنار زوج السلطان إلى سلطان مصر تحميه بنفسها من سهام الأعداء، ويصيبها فى أرض المعركة سهم قاتل فيصيبها فى الصميم وتخر صريعة، شهيدة الوطن، وهى تهتف لمصر، ويقبل بيبرس فيحملها من أرض المعركة ويقدم فرسه للسلطان ليركبه بعد أن سقط فرس قطز من كثرة السهام.

لقد احتدم القتال بين الجيشين، وكاد المغول يحدثون ثغرة فى ميسرة الجيش المصرى، ولكن السلطان قطز أسرع إلى مكان الثغرة، وألقى بخوذته من فوق رأسه، وصاح صيحته التاريخية المدوية: وا إسلاماه، وا إسلاماه وا إسلاما.

واقتحم فى بسالة نادرة صفوف الأعداء فأثار الحماس فى جنوده، فكروا على الجيش المغولى، ونجحوا فى زحزحته عن مواقعه، ثم واصلوا هجومهم، فتقهقر المغول تاركين وراءهم عدداً كبيراً من القتلى والأسرى، وطارد السلطان قطز فلول جيش المغول حتى أوقع بهم هزيمة ساحقة وتعقبهم بيبرس حتى أجلاهم عن الشام كله، وسقط المغولى الوحشى ايفا صريعا فى المعركة.

لقد أبيد الجيش المغولى إبادة كاملة، وجئ بقـــائده المغولـــى مكبـــلا بالحديد فوقف بين يدى السلطان، قال له قطز : أيها المجرم، ها أنت ذا اليوم بين يدى سلطان مصر، بعد أن سفكت الدماء البريئة وقضيت علـــى الأرواح الطاهرة، وخدعت الناس بغرورك وكذبك، ويتمت الأطفال ورملت النســـاء، وأنت اليوم أسير بين يدى.

ويرد القائد المغولى المنهزم قائلا : إن هولاكو سيدمر مصر انتقامـــاً لشرفه.

ويصدر السلطان أمراً بإعدام هذا المغولى الســـفاح، ويبلـــغ الخـــبر هولاكو فيعلن الحداد على جيشه وقائده أربعين يوماً، وتصيبه لوثة جنون، فلا يفارقه شبح جيش مصر، وطيف جلنار ليل نهار.

وفى ليلة الأحد التاسع عشر من شهر ربيع الثانى من عام ٦٦٣هـ/ ١٢٦٥م كان هولاكو ابن الثمانية والأربعين عاماً نائماً فى مخدعـــه، وهـــو يردد: ليتنا لن نحارب مصر ولا سلطان مصر ولا جيش مصر، ليتنـــا لـــم نحارب جلنار، وذهبت أثر ذلك روحه إلى الجحيم كما مات بعده بقليل أخـــوه الخاقان الأعظم مانجوخان.

وذهبوا جميعا بعد أن ذاقوا مرارة الهزيمة على يدى جلنار وجيـــش مصر وسلطان مصر، الملك المظفر قطز.

لقد عرف بعد ذلك قوة الإسلام ومناعته الذاتية، حتى ليقول مـــؤرخ غربى: أن المغول لم يستطيعوا قهر الإسلام بل إن الإسلام هو الذى قـــهرهم، فلم يلبثوا أن اعتنقوه بعد خمسين عاما من سقوط بغداد، وتحولوا إلى خدمته، وإعلاء رايته مسهمين بذلك فى دعم البناء الذى حالوا أن يهدموه.

لقد انتهت أسطورة الجيش الذى لا يغلب بعد أن انهارت أمام زحفـــه جيوش الخوارزمية، وجيوش الخلافة العباسية وبعـــد أن انـــهارت القـــوى المسيحية أمام الزحف المغولى المدمر، وكان ذلك النصر معجزة السماء.

لابد من قائد جديد يقود البشرية وسط الأعاصير الهوج، والعواطف المردية، إلى شاطئ الأمن والسلام، وإلى القيم والمثالية الرفيعة، التي فقد عالمنا اليوم الإيمان بها.

يقول إقبال: إن الحضارة الغربية قد مثلت دورها ونثرت كنانتها، وقد شاخت وهرمت، أينعت كالفاكهة وحان قطافها، وإن العالم الذى حوله مقامرو الغرب إلى حانة الفساد سوف ينهار قريبا، ولقد رأت أوروبا بعينها النتائج المخيفة لمثلها الاقتصادية والأخلاقية والعلمية، ولكن وا أسفاه، ولسوف تتمخض الإنسانية عن عالم جديد، وهذا العالم الجديد لا يحسن تصميمه إلا من بنى للبشرية البيت الحرام. وورث إبراهيم ومحمدا – صلى الله عليهما وسلم – قيادة العالم.

إن تاريخ الإسلام الحضارى لا يمكن أن يكون محل شك من أحد، إنه واضح وضوح الشمس فى ريعان النهار.

ولقد بهر تاريخ الإسلام الحضارى العلماء والباحثين والمفكرين فى أوروبا، وأخذوا – على الرغم من تعصبهم الدينى، ومحاولتهم تزييف الحقائق والتاريخ – يمجدون حضارة المسلمين وينوهون بها، ويثنون عليها، ويعلون من منزلتها بين الحضارات، إلى حد يثير الإعجاب، ويدعو إلى الفخر، ويبعث على الكبرياء.

لقد صاح "بترارك" الشاعر الإيطالى فى القرن الرابع عشر الميلادى (١٣٣٤ – ١٣٧٤م)، حين رأى تفوق العرب فى الميدان الحضارى والثقافى، وعجز أوروبا عن اللحاق بهم فى هذا المضمار قائلا: "يا عجبا!!! لقد

استطاع شبشرون أن يكون خطيبا بعد ديموستين، واستطاع فيرجيل (١٩ ق.م) أن يكون شاعرا بعد هوميروس، فهل قدر علينا ألا نؤلف بعد العرب؟ لقد تساوينا نحن والإغريق وجميع الشعوب غالبا، وسبقناها أحيانا، إلا العرب فيا لعبقرية إيطاليا النائمة الخامدة.

وقف فيكتور هوجو الشاعر الفرنسى الكبير فى القرن التاسع عشر الميلادى أمام حضارة العرب فى الأندلس، ممثلة فى قصر الحمراء مبهورا مأخوذا، ويدخل القصر فتمتلئ نفسه بروعته، وجلاله وينشد قائلا: "أيتها الحمراء أيتها الحمراء، أيها القصر الذى زينتك الملائكة كما شاء الخيال وجعلتك آية الانسجام أيتها القلعة ذات الشرف المزخرفة بنقوش كالزهور والأغصان، والمائلة إلى الانهزام، حيثما تنعكس أشعة القمر الفضية على جدرك من خلال قناطرك العربية، يسمع لك فى الليل صوت يسحر الألباب، وهذا القصر الذى ملأت روعته نفس الشاعر الفرنسى الكبير، لم يشاهده "هوجو" على الطبيعة، إنما شاهده وجدره المزخرفة، ونقوشه النادرة، قد غطيت بطريقة سميكة من الكلس، بعد خروج العرب من الأندلس، وذلك بأيدى الأسبان الملوثة فى بلادهم، يقول غوستاف لوبون: "كل ما فى قصر الحمراء عجيب وأن المرء ليملكه العجب من جدرانه المزينة بالنقوش العربية الأنيقة، وقبابه ذات الزخارف الساحرة المتدلية، المطلية فيما مضى باللازورد والأجوان والأبريز، ولقد قص جميع رجال الفن، الذين زاروا قصر الحمراء العجيب، والألم ملء قلوبهم، ما لا يكاد العقل يصدقه، من أنباء التخريب الفظيع، الذى أحدثه الأسبان فيه، حتى لقد عدته جميع الحكومات الأسبانية مجموعة من الخرائب القديمة، التى لا تنفع لغير الاستفادة من موادها، فبيعت ألواح الميناء التى كانت تزين ردهات الحمراء لصنع الملاط، وبيع باب مسجدها البرونزى كنحاس عتيق، وحرقت منها أبواب ردهة بنى سراج

الخشبية الأنيقة كما يحرق الحطب، ثم اتخذ من ردهاتـــها الجميلـــة ســجونا للمجرمين، ومخازن للميرة ، بعد أن بيع ما أمكن نزعه منها، وأراد الأسـبان تطهير جدران الحمراء المزينة بالنقوش العربية الجميلة، فكسوها بطبقات من الكلس، وقيل للأسبان غير مرة: إنهم يملكون بهذا القصر إحدى عجائب الدنيا التى تجلب إليهم المسلمين من كل جانب، فأزيل شيء من الكلس الذى سترت به تلك النقوش العربية.. هذا هو ما يقوله أوربى فرنسى عن أثر واحد مـــن آثار حضارة الإسلام فى الأندلس، ويستمر فـــى كلامـــه، فيقـــول : وأيـــن غرناطة اليوم الكئيبة القذرة من غرناطة الأمس الجميلة المتحضرة؟

وعندما وقف محمد إقبال فى مسجد قرطبة العظيم عام ١٩٣١، صلى فيه لأول مرة فى التاريخ بعد جلاء المسلمين وذرف علـــى تربتـــه دموعـــا غزارا، وتذكر العرب المسلمين الذين حكموا هذه الأرض ثمانيـــة قـــرون ، واستنشق فى جوه وهوائه أريج حضارتهم، وشعر كأن هذا المسجد العظيـــم يشكو إليه حرمانه من سجود المؤمنين وكأن جو قرطبة يشكو إليه إقفاره من الأذان الإسلامى، وظمأه إليه، فنظم فى ذلك قصيدة من أبدع قصائده...

ويقول غوستاف لوبون فى كتابه "حضارة العرب" مبهورا بعظمـــة الحضارة الإسلامية، وبماضى العرب الحضارى : الحق أن أتباع محمد ظلوا أشد من عرفتهم أوروبا من الأعداء إرهابا عدة قـــرون، وعندمـــا كـــانوا لا يرعبوننا بأسلحتهم، كانوا يذلوننا بأفضلية حضارتهم العربية السامقة، ونحـــن لم نتحرر من نفوذهم إلا بالأمس.

ويقول مسيو ليبرى: لو لم يظهر العرب على مسرح التاريخ لتأخرت نهضة أوروبا عدة قرون.

لقد كان العرب إذا ما استولوا على مدينة، صرفوا جهدهم إلى إنشـــاء مسجد، وإقامة مدرسة فيها، وإذا ما كانت تلك المدينة كبـــيرة أسســـوا فيـــها

مدارس كثيرة، ومنها المدارس العشرون التى روى بنيامين التطليلى (٧٣١م) أنه شاهدها فى الإسكندرية ، هذا عدا اشتمال المدن الكبرى كبغداد والقــاهرة وقرطبة وطليطلة على جامعات مشتملة على مختبرات ومراصد ومكتبـــات غنية، وعلى كل ما يساعد على البحث العلمي.

ويصف المؤرخ العربى الكبير أبو الفداء فى تاريخه عظمة الخلافــة العباسية وحضارتها التى بهر منها سفراء قيصر الروم عام ٣٠٥هــ، حيــن أقام الخليفة المقتدر بالله لهم حفل استقبال فى قصره ببغـــداد، يقــول أبــو الفداء: قدم رسل ملك الروم إلى بغداد، فلما استحضروا عبئت لهم العســاكر وصفت الدار بالأسلحة وأنواع الزينة ، وكان العسكر المصفوفون حينئذ مائة ألف وستين ألفا، ما بين راكب وواقف، وقف الغلمان ذوو الزينـــة البــاهرة والمناطق المحلاة، ووقف الخدام بذلك، وكانوا سبعة آلاف، أربعة آلاف خادم أبيض، وثلاثة آلاف خادم أسود، ووقف الحجاب كذلك وهم حينئذ ســبعمائة حاجب، وألقيت المراكب والزوارق فى دجلة بــأعظم زينـــة، وزينــت دار الخلافة، فكانت الستور المعلقة، عليها ثمانية وثلاثين ألف ستر، منـــها إثنــا عشر ألفا وخمسمائة ستر من الديباج المذهب، وكانت البسط أثنين وعشــرين ألفا، وكان هناك مائة سبع مع مائة سباع، وكان من جملة الزينة شجرة مــن ذهب وفضة، وشاهد الرسل من العظمة ما يطول شرحه، وأحضــروا بيــن أيدى المقتدر وصار الوزير يبلغ كلامهم إلى الخليفة، ويــرد الجــواب عــن الخليفة.

ولقد سيطرت الحضارة العربية منذ اثنى عشر قرنا علـــى الأقطــار الممتدة من شواطئ المحيط الأطلنطى إلى المحيط الهندى، ومـــن شــواطئ البحر المتوسط إلى رمال إفريقيا الداخلية، وكان سكان هذه البلدان المتراميــة الأطراف تابعين لدولة واحدة، ويدينون بديانة واحدة، ولهم لغة واحدة ونظــم

واحدة وفنون واحدة، وكان تأثير لغة واحدة عظيما فى الغرب، وهـــو فـــى الشرق أشد وأقوى، فلم يتفق لأمة ما اتفق للعرب من النفوذ، وأنه لفرق كبير بين بناء الدولة وبين تأسيس حضارة، ولقد أنشأ العرب بســـرعة حضـــارة جديدة لهم، فأبدعوا من فورهم حضارة أفضل من جميع الحضـــارات التـــى كانت قبلها.

وإذا قرأنا ما كتبه الغربيون عن "تاج محل" الأثر الإسلامى العظيــم فى الهند (١٠٤١هـ ١٦٣١م) راعنا وصفهم له، يقول باحث أوروبـــى : إن كل ما يمكن أن يجود به الفن من الكمال صبه فى "تاج محل" الساحر الـــذى بناه شاهجهان ليكون ضريحا لزوجه، ويعد من عجائب الدنيـــا، وهـــو مـــن المبانى الإسلامية النادرة التى أفلتت من أيدى التخريب الإنجليزية المنظمـــة، وكان الحاكم الإنجليزى لورد بنتنك قد اقترح هدمه وأن تنزع منـــه فضتـــه، وتباع قطعه فى الأسواق، ولقد هدم الإنجليز أثر رائعا من آثـــار الحضـــارة الإسلامية فى الهند هو "قصر المغول" فى دهلى ويسمى "قلعة شـــاهجهان"، الذى شيده شاهجهان المسلم عان ١٠٥٨هـ ١٦٤٨م، وكـــان مـــن أجمـــل القصور الإسلامية فى بلاد الهند وفارس، فهدموا جميع أجزائه، وأقاموا فـــى مكانه ثكنات، ولم يبقوا منه إلا على بعض الردهـــات التـــى ضنـــوا علـــى زخارفها وحلاها بالتجديد عن تحويلها إلى اصطبلات ومراقد للجنود، فطلوها بالجبس، مما أثار سخط العالم بسبب مثل هذا العمل الهمجى، الذى تحمر منه وجوه وحوش البرابرة خجلا، وعظمة الآثار الإسلامية فى دهلى معروفـــة، حتى لكأن سحرة "ألف ليلة" لا تستطيع أن تبدع ما هو أروع منها ... وحيـــن استولى المغول على بغداد عام ٦٥٦هـ -١٢٥٨م خربوها تماما، وقضـــوا على آثار الحضارة العربية فيها، ونهبوا كل ما فيها من الأموال بأمر هولاكو التترى ودمروا كل ما وصل إلى أيديهم، وألقوا فى نهر دجلـــة بجميـــع مـــا

وصلت إليه أيديهم من مخطوطات نفيسة كانت ثروة علمية وحضارية فريدة، فى مكتبات بغداد العامة وتألف من هذه الكتب الملقاة فى دجلة جسر كان يمكن للناس أن يعبروا عليه رجالا وركبانا، وأصبح ماء دجلة أسود من مدادها، ولكن أولئك الوحوش الضارية عادوا فخضعوا لسلطان حضارة المغلوبين، ففى المدرسة العربية تمدن المغول، واعتنقوا الإسلام وحضارته، وأقاموا بعد ذلك فى الهند دولة عربية قوية.

وقد أذاع بعض الأوروبيين أن العرب أحرقوا مكتبة الإسكندرية القديمة بأمر عمر بن الخطاب، ولكن المحققين من الباحثين من عرب ومستشرقين وفى مقدمتهم بتلر نفوا ذلك نفيا قاطعا، وكذلك نفى هذه الخرافة جيبون وغوستاف لوبون فى كتابه حضارة العرب، وتاريخ العرب الفكرى والثقافى والحضارى ينفى عنهم ذلك، فقد كانوا منذ نشأ الإسلام حماة للثقافة ورسلا للعلم وروادا للمعرفة، والمشجعين على البحث العلمى فى كل مكان حلو فيه، والصحيح أن جزءا من هذه المكتبة أحرقه يوليوس قيصر، على أنه ليس مستبعدا أن تكون روما هى التى اغتصبت من هذه المكتبة أثمن كتبها، كما أنه من الصعب أن نقول إن المكتبة لم تصب بأذى فى عهد الرومان مما كان ضربة قاضية على مكتبة الإسكندرية ففى عام ٣٩١م أصدر الإمبراطور الرومانى أمرا بالقضاء على عبادة الأوثان فى الإسكندرية، ومن العسير أن نصدق أنه كان بالإسكندرية مكتبة كبيرة بعد أواخر القرن الرابع الميلادى.

ولقد بلغ المسلمون قمة مجدهم الحضارى فى ظلال الرشيد وابنه المأمون فى بغداد والناصر وابنه الحكم فى قرطبة، والمعز وابنه العزيز الفاطمى فى القاهرة، وآثار المسلمين الحضارية فى الهند وفارس والعراق ودمشق، وفى كل مكان نزلوه، لا تزال على الرغم من قدم العهد بها، وعدم العناية، بتجديدها، ملء السمع والبصر ... ولفلاسفة الإسلام من مثل الكندى

(٢٥٣هـ) والفارابى (٣٣٩هـ) وابن سينا (٤٣٨هـ)، وابن رشد (٥٩٥هـ) وابن الطفيل (٥٨١هـ) وغيرهم، لهم مكانتهم الرفيعة فى الفكر الإنسانى، واشتهر من العلماء المسلمين : ابن الهيثم (٣٥٥ - ٤٣٠هـ) الذى يصفه البيهقى بالحكيم ويعده (بطليموس الثانى)، ويصفه مستشرق بأنه أعظم الرياضيين والطبيعيين فى العصور الوسطى، ويقول عنه مصطفى نظيف العالم المصرى، إنه أنشأ علم الضوء الحديث كما هو الآن ويعده "رضا مدور" فى مرتبة اينشتين ... ومن العلماء - كذلك: جابر بن حيان والرازى وغيرهم، وقد نقل كتاب جابر بن حيان (الاستتمام) الذى هو أهم كتبه إلى اللغة الفرنسية عام ١٦٧٢، فدل هذا على نفوذه العلمى فى أوروبا مدة طويلة.

ولقد سبق العرب بيكون إلى التجربة، وكانوا حائزين لهذا المنهج التجريبى المجدى، الذى استعان به علماء القرون الحديثة بعد زمن طويل للوصول إلى أروع الكشوف، وهو المنهج العلمى الحديث السائد الآن فى جامعات أوروبا، وكان الغزالى وابن رشد وابن حزم أساتذة لبيكون فى هذا المضمار ...، ويقول "بريفليف" العلامة فى كتابه "البحث العلمى" إن محاولة إسناد الطريقة التجريبية لغير العرب ليست إلا تصحيفا فى فهم المصدر الحقيقى للحضارة الأوروبية، ولا يوجد جانب واحد فى الحضارة الأوروبية دون أن تكون ثقافة المسلمين واضحة فيه، وقد وصل العرب عن طريق منهجهم العلمى التجريبى إلى كشوف مهمة، وأنجزوا فى ثلاثة قرون من الاكتشافات ما يزيد كثيرا على ما حققه الإغريق وغيرهم فى أطول بكثير من ذلك الزمن. ومنح اعتماد العرب على التجربة مؤلفاتهم دقة وإبداعا، ووصلوا إلى اختراع البارود، والمدفع وإلى أشياء كثيرة فى كل علم وفن.

وكان تأثير العرب وحضارتهم فى الغرب عظيما جليلا حتى ليقـــول غوستاف لوبون: إن أوروبا مدينة للعرب بحضارتها، وقد ظلت كتب العـرب المترجمة إلى اللغات الأوروبية، ولا سيما الكتب العلمية مصدرا وحيدا تقريبا للتدريس فى جامعات أوروبا خمسة أو ستة قرون، ويمكننا أن نقول: إن تأثير العرب فى بعض العلوم – كعلوم الطب مثلا – دام إلى أيامنا، فقد شـرحت كتب ابن سينا فى مونبيليه فى أواخر القرن التاسع عشر، وكان ابـــن رشـد الحجة البالغة للفلسفة فى الجامعات الأوربية من أوائل القرن الثـالث عشـر الميلادى: ولما حاول لويس الحادى عشر تنظيم أمور التعليم فى فرنسا عـام ١٤٧٣م أمر بتدريس مذهب هذا الفيلسوف العربى المسلم، ولم يكـن نفـوذ العرب فى جامعات إيطاليا بأقل منه فى فرنسا، فقد كان للعرب فيـها شـأن كالذى كان للإغريق واللاتين بعد عصر النهضة، واقتبس الغرب أصول فـن عمارته من العرب، واستخدم الفرنسيون مهندسين معماريين من العرب فـى إنشاء كنيسة نوتردام البارسية، وهكذا كان المسلمون أسـاتذة للغـرب فـى الفنون والآداب وفى الفلسفة والرياضيات والفلك والطب والفيرياء والميكانيكا وفى العلوم الطبيعية والصناعية، وفى الأخلاق، بل لم يتخلص النصارى مـن همجيتهم إلا بفضل اتصالهم بالعرب واقتباسهم منهم مبادئ فروسـيتهم ومـا تؤدى إليه هذه المبادئ من التزامات كما يقولون، فالعرب هم الذيـن فتحـوا لأوروبا ما كانت تجهله من عالم المعارف العلمية والفلسفية والأدبية، فكـانوا ممدنين للغرب، وأئمة له فى ستة قرون ...وعن طريق العرب فـى أسـبانيا وصقلية وجنوب إيطاليا اهتدى الغرب إلى تراث الإغريق، واكتشف ماضيـه فأخذ ينقب عنه...

وقد كان ملوك النورمان فى صقلية، بعد أن أسقطوا الحكم الإسـلامى فيها، يحترمون العرب فى هذه الجزيرة، ويبسطون عليهم حمايتهم، ويمنعون

عنهم الاضطهاد بسبب إمامة العرب فى الفنون والعلوم والصناعات، حتـــى كان الرهبان فى الجزيرة يعجبون بحذق العرب، ويعزون اكتشـــافاتهم إلـــى السحر.

ولما زار الشاعر إقبال جزيرة صقلية سكب دموعه علـــى أطلالـــها العربية، وقال قصيدة افتتحها ببيت يقول فيه:

"ابك أيها الرجل دما، لا دمعا فهذا هو مدفن الحضارة العربية" وزار الإمام محمد عبده أيضا الجزيرة، وشاهد حضارة العرب فيها، ووصف مقبرة مسينى المشهورة فيها.

الملك البريطانى "أوفا الثانى"
OUFA the second
يعتنق الإسلام
(٧٥٧ – ٧٩٦م / ١٤٠ – ١٨٠هـ)

– ١ –

أوفا الثانى الملك البريطانى الذى تردد اسمه فى كثير من المصـــادر – وكان ملكا على مملكة مرشيا فى بريطانيا – وكان جده الملك أوفا الأكــبر حاكما على قبائل جرمانية فى القارة الأوربية.

هذا الملك العظيم حكم بلاده نحو الأربعين عاما – وكان ملكا مثاليا – يمتاز بالشجاعة والنجدة – وبالكرم[1] – وكان يفتخر دائما بأنه مــن ســلالة الملك أوفا القديم.

كان "أوفا الثانى" مقاتلا باسلا – اشــتهر بيــن النــاس بانتصاراتــه وبكرمه[2] – كما كان يحكم وطنه حكما مستنيرا[3].

وكانت له زوجة متكبرة متغطرسة جبارة تدعى (ثــروذ) – وهنــاك قصة للملك أوفا وزوجته (ثروذ) هذه – حيث يروى الرواة أن (ثروذ) تلــك فتاة جميلة – ولكنها شريرة – وكانت تمت بصلة قرابة إلى شارلمان.

وكانت قد ارتكبت جريمة شائنة حكم عليها من أجلها أن توضع فــى قارب بدون شراع أو مجاديف – ثم يدفع بها إلى لجة البحر لتذهــب حيــث

---

[1] ... قدماء الإنجليز وملحمة بيولف - د. مجدى وهبة - دار المعرفة بالقاهرة عام ١٩٦٤.

[2] ص ٥٧ المرجع السابق.

[3] ص ١٥٢ المرجع نفسه.

تشاء لها المقادير – وحيث تقذف بها الأمواج – ويروى الـــرواة كذلـــك أن الأمواج قذفت بها إلى شواطئ بريطانيا – وعثر عليـــها بعـــض البحـــارة فحملوها إلى الملك (أوفا) – فسألها عن خبرها – فزعمـــت لـــه أن أســـمها (دريدا) – وأنها قد نفيت نتيجة لدسائس دبرها لها رجال كـــانوا قـــد طلبـــوا الزواج منها – فرفضت طلبهم – لأنهم من طبقة أدنى من طبقتها – وكـــان الملك (أوفا) قد سحره جمالها فصدق رواياتها وتزوج بها – وبهذا الـــزواج صارت ملكة: ومنذ ذلك الحين ظهرت كبرياؤها وغطرستها وعرف عنـــها مدى حرصها على جمع الأموال كما دأبت على تدبير المكـــائد والدســـائس لزوجها ولرجال حاشيته بها ولشعبه – وكانت سببا فى قتـــل ملـــك انجليـــا الشرقية – الذى طلب الزواج من ابنة الملك (أوفا) ... وبعد سنين قليلة ماتت هذه الزوجة ميتة شنيعة[١]...

إن هذه القصة شائعة بين قبائل الجرمان والسكندنافيين – ولكن بشىء من الخلط بين أوفا الأول وأوفا الثانى[٢]...

– ٢ –

ويتردد اسم الملك أوفا ملك الانجل فى ملحمة بيولف كثـــيرا – ممـــا يدل على أن الشاعر كان ينشد قصيدته أمام الملك أوفا فى قصره – وبـــالطبع فالمقصود هو أوفا الثانى[٣].

ويبدو أن الشاعر كان من حاشية الملك أوفا الثانى – لأن المدح الذى خص به أوفا الأول كان مقحما على تسلسل الملحمة[٤]...

---

[١] ص ١٩٩المرجع السابق.

[٢] ص ١٩٩المرجع السابق.

[٣] راجع ٥٧ المرجع السابق.

[٤] راجع ص ٥٧ المرجع السابق.

ويظهر أن الشاعر كان معجبا بمليكة أوفا الثانى لبطولته وشجاعته ولكرمة وحبه لرجال حاشيته – ويرى بعض الباحثين أن الشاعر عند البيت (رقم ١٩٣١ من الملحمة – ملحمة بيولف) كان يشير إلى (الملك أوفا الثانى) مادحا ومنوها به وببطولاته.

– ٣ –

هذا الملك الكبير أوفا الثانى كان معاصرا للخلفاء العباسيين المنصور والمهدى والهادى والرشيد.

وهناك دلائل قوية على تأثيره بالحضارة الإسلامية – وبالدين الإسلامى – بل وعلى اعتناقه للإسلام – فقد سك نقودا عليها كلمة التوحيد – واسمه أيضا – وتحمل هذه النقود تاريخ عام ٧٧٤م – أى عام ١٥٧هـ – فى نهايات حكم المنصور العباسى – ويرجح صاحب المقال الذى نشرته (المجلة العربية)[١] – إن الملك "أوفا الثانى" اعتنق الإسلام – ولو كان الأمر أمر تأثر الملك بالحضارة الإسلامية فحسب لما نقش على النقود المسكوكة كلمة التوحيد.

ولا شك أن الإسلام وحضارته ومبادئه كان لها كل التأثير فى عقول جماهير الشعوب وحكامها فى أوروبا فى هذه الفترة – حيث أشعة العلم والنور والمعرفة فى الشرق الإسلامى وحيث مبادئ العدالة والشورى والتوحيد والإنسانية فى شريعة الإسلام – كانت جميعها تهز الناس هزا عنيفا – وتملأ قلوبهم وعقولهم إعجابا بسمو هذا الدين – وبشموخ حضارته – وحسبنا شارلمان وسفراؤه الذين زاروا بغداد فى عصر الرشيد وأذهلتهم حضارة الإسلام فى دار السلام – والساعة الدقاقة التى تبين الوقت بالتحديد.

---

[١] راجع مقالا قيما نشر فى عدد ربيع الثانى ١٤٠٩هـ – نوفمبر ١٩٨٨ من مجلة (المجلة العربية) بالرياض التى يرأس تحريرها اليوم الصحفى الكبير الأستاذ/ حمد القاضى.

والإسلام وهو الدين السماوى المنزل على رسولنا العظيم محمد بن عبد الله – وكتابه الحكيم (القرآن الكريم) حريان بالتفاف الجماهير حوله – وإذعانهم لجلاله وسموه وعظمته.

فهو دين الحق والعدل والحرية والإخاء والمساواة – وهو دين التعاون والتعاطف الإنسانى النبيل – وهو دين السلام والرحمة والإحسان والإنسانية. وهو دين يحارب الرذائل ما ظهر منها وما بطن – ويدعو فى قوة وجلال إلى كل الفضائل النبيلة فى الحياة – وإلى الشرف والعزة والكرامة والطهارة والإيثار والمودة بين الناس. وهو أولا وقبل كل شىء دين التوحيد المطلق.

وفى عصر (أوفا الثانى) حدث ولا حرج عن الظلام الذى كان يخيم على كل الآفاق فى أوروبا – وعن الجهل والمرض والفساد الذى كان مستشريا فيها بين جماهير الناس – وحدث عن أضواء الحضارة الإسلامية الباهرة – التى كانت تملأ الدنيا كلها نورا وإشراقا وروعة.

وحضارة الإسلام ما كان فيها مكان لعاطل – ولا موضع لجاهل – ولا محل لضعيف.

كانت بغداد والفسطاط والقيروان ودمشق ومكة والمدنية والبصرة والكوفة والرى وبغداد – وسائر المدن والعواصم الإسلامية مملوءة بالمدارس والجامعات وبالعلماء والباحثين والطلاب ورجال المعرفة والفكر.

وكانت الدنيا قد تغيرت فى الشرق الإسلامى تغيرا كاملا – ووجه الحياة قد ابتسمت محياه – وأنارت أساريره – ومشت الأيام حافلة بكل جديد – وطريف – ومبتكر.

وكانت دعوة الإسلام إلى السلام تملأ الدنيا أمنا وطمأنينـــة ورخـــاء وازدهارا ونهضة وتقدما...

فليس إيمان (أوفا الثانى) الملك البريطانى المستنير - بالأمر العجيب - ولا - بالحدث الغريب فى ذلك الزمان البعيدة وصدق الله العظيم - فيمـــا يقول فى كتابه الحكيم:

(سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحـــق - أو لم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد)- "٩"[٩] ...

---

[٩] الآية ٥٣ من سورة فصلت.

كادت بريطانيا تعتنق الإسلام

- ١ -

هذه القصة يرويها مؤرخ صحفى إنجليزى فى كشف تاريخى مثـــير يثبت أن إنجلترا كادت ذات مرة أن تعتنق الإسلام وتصبح إمـــارة عربيـــة إسلامية تابعة للسلطان محمد الناصر سلطان المغرب والأندلس، أوائل القرن الثالث عشر، طواعية، وباختيار الملك جون الأول، الذى عرض أن يعتنـــق الإسلام هو ورجال بلاطه وشعبه، وأن يكون "تابعا" مخلصا للسلطان فقـــط، إذا قبل السلطان أن يبسط عليه حمايته.

صاحب الكشف، هو الصحفى المؤرخ الإنجليزى، جابرييل رونـــى، صاحب ومؤلف كتاب ، الإنجليزى، ســفير خــان التتــار، عــن الأســقف الإنجليزى "روبرت دى لندن" وحياته الغريبة، منذ كان "قسيس الاعـــتراف" الخاص بالملك جون، إلى أن أصبح الدبلوماسى والمــترجم الخـــاص لأحـــد خانات التتار فى منتصف القرن الثالث عشر، الذى صحب الخان فى إحـــدى حملاته الرهيبة على شرق أوربا ضمن موجة غزوات التتار عبر آسيا إلـــى العالمين الإسلامى والمسيحى فى ذلك العصر.

ويقول المؤلف، جابرييل رونى، أنه عثر على القصة الكاملة لمحاولة الملك جون اعتناق الإسلام وتسليم مملكته لأمير مغربى يدعى محمد النـاصر (هل يقصد الملك الناصر محمد بن قلاوون أعظم سلاطين المماليك البحريـــة فى مصر؟) وذلك فى سجل تاريخى قديم، معاصر لتلك الأحداث، فـــى أحـــد الأديرة القديمة... ويقول المؤلف مقدما، أن الملك جون - الذى اشتهر بمكره الشديد، قد سعى إلى ذلك هربا من مشاكله السياسية الداخليـــة التـــى انتـــهت

بهزيمته أمام البارونات (النبلاء) وتسليمه لـــهم الميثــاق الأعظــم أو الـــ "ماجناكارتا" التى تعتبر مجازا ، أول وثيقة قامت عليها أســس الديمقراطيــة البريطانية بعد ذلك.

ويقول المؤلف جابرييل رونى أيضا أن صاحب ذلك السجل التاريخى هو المؤرخ الإنجليزى الفذ "ماثيو باريس"، الراهب فى دير ســانت البــانى، الذى تفرغ لكتابة أحداث القرن الثالث عشر يوما بعد يوم (تماما كما كــان يفعل المؤرخون المسلمون والمصريون منذ العصر الفاطمى وحتى عصــر محمد على، أى منذ المقريزى حتى الجبرتى.

ويقول جابرييل رونى أنه ليس ما يدعوا إلى الشك فى القصــــة لأن ماثيو باريس كان قد سمعها من فم بطلها شخصيا وكان البطل هو الأســقف روبرت دى لندن نفسه، حينما كان لا يزال قسيس الاعتراف الخاص بـالملك جون.

قال روبرت دى لندن، لماثيو باريس، أنه كان أحــد رسـل ثلاثــة أرسلهم الملك جون فى بعثة سرية إلى الأمير محمد النـــاصر عــام ١٢١٣، والرسولان الآخران كانا بالضرورة من رجال الدولة العسكريين فـــى ذلــك الزمان، وهما البارون توماس هارد ينجتون والبارون رالف فيتز نيوكولاس. وقد أرسل الملك قسيسه الخاص معهما حتى يضمن ألا يخونــــه البارونـــان النبيلان أو يفشيا سره.

وقال روبرت دى لندن أن البارون توماس هارد ينجتون كان رئيــس البعثة، وقد كلفه الملك جون على مسمع من البارون رالف والقس روبـــرت بأن يقول :" للملك العظيم ملك أفريقيا والمغرب وأسبانيا" بأنه على اســتعداد لأن يسلم للملك الناصر، طواعية، نفسه ومملكته، فإذا شاء الملــك النــاصر، فيأخذ هذه المملكة كولاية ضمن دولته.

وقد كتب الملك جون خطابا بهذا المعنى أيضا سلمه البارون تومـلس هارد ينجتون للملك الناصر ثم راح البارون، بمعاونة أحد المترجمين، يصف للملك المسلم، مستخدما كل فصاحته وبيانه، ثراء أرض إنجلـترا وخصوبـة حقولها، وما يتمتع به أهلها من دراية ومهارة وهم يتمتعون بمعرفـة ثـلاث لغات: اللاتينية والفرنسية والإنجليزية، بالإضافة إلى إتقانهم كل حرفة يدويـة وميكانيكية أخرى.

إلا أن إجابة الملك المسلم كانت عاقلة ومتزنة بصورة غير عاديـة، فقد قال:" لم يحدث أبدا أن قرأت أو سمعت عن ملك أو حاكم، يمتلـك هـذه المملكة الثرية وهى مملكة مطيعة لأوامره خاضعة لـه، ثـم يتخلـى بـهذه الصورة عن سيادته وسلطانه بتحويله بلادا حرة إلى ولاية تابعة، وبأن يمنـح لحاكم غريب ما هو ملك خاص له، وبأن يحول السعادة إلى بؤس وشـقاء، مانحا نفسه بهذا الشكل لإرادة ملك آخر وملكه، كما لو كان قد هزم أو أسـر دون إراقة نقطة من دم. ورفض الملك الناصر العرض بشدة وبصفة قاطعة.

ويضيف ماثيو باريس نقلا عن قسيس الملك جون، أن الملـك بكـى بكاء مريرا لخيبة مسعاه بهذا الشكل، حينما عاد رسله إليه. ولكنه كافأ قسيسه بأن عينه رئيسا لدير سانت البانى (وهناك قابله ماثيو باريس وسـمع منـه القصة لكى يضمنها فى تاريخه).

ولكن رهبان الدير كانوا يكرهون روبرت دى لندن، فدفعـوا للملـك ٧٠٠ قطعة فضية مقابل عزله من رئاسة الدير:

وهكذا انهارت علاقة روبرت دى لندن بالملك، فتخلى القسيس عـن ملكه، وانضم إلى أعدائه البرونات الذين انتزعوا من الملك الميثاق الأعظـم" بعد ذلك، والمعروف أن الملك جون الماكر كان قد اتفق مع بابا روما الـذى كانت كنيسة إنجلترا لا تزال تابعة له فى ذلك العصر، على معاقبة البارونات

المتمردين والقساوسة المنضمين إليهم، على أساس أنهم زعزعوا سلطان الملك، فأضعفوا الكنيسة بالتالي.

وهكذا أمر الملك جون كنيسته بإصدار قرارها بحرمان القسيس روبرت دى لندن ونفيه من إنجلترا، ثم هرب روبرت إلى آسيا وسار حتى التقى مع خان التتار الأكبر فى منغوليا وأصبح ممثله الدبلوماسى وترجمانه إلى أن عاد إلى أوروبا فى إحدى الغزوات المدمرة.

- ٢ -

وسر ذلك كله أن الملك جون (يوحنا) الذى يكرهه المؤرخون البريطانيون لمحاولته اعتناق الإسلام والدخول فى حماية سلطان المغرب والأندلس الملك محمد الناصر.

وقد تولى جون العرش بعد أخيه ريتشارد (قلب الأسد). وكانت أشد أزمة مرت بالملك جون طيلة حياته وقاسى بسببها الآلام، هى نزاعه مع البابا (أنسنت الثالث) حول الاختلاف على تعين كبير الأساقفة فى إنجلترا. فقد اختار جون أحد أصدقائه المقربين لهذا المنصب الدينى الخطير، بينما أصر البابا على تعيين آخر يسمى (ستفين لانجتون).. ولكن الملك ضرب برغبة البابا عرض الحائط وأصر على الاحتفاظ بالمنصب لصديقه (دى جرى)! فغضب البابا غضبة عاتية وشرع فى وجه الملك (سلاح الحرمان)... والحرمان أى الطرد من عضوية الكنيسة ... معناه التجريد من المسيحية بكافة مظاهرها وشعائرها .. وأن يتبرأ الجميع من (المحروم) وليس له سلطان عليهم! ولما لم يمتثل جون لهذا التهديد أعلن البابا قراره الرادع.! فأمعن الملك بدوره فى تعذيب رجال الدين والتنكيل بهم لوقوفهم فى صف البابا ممثل السلطة الدينية العليا ... وتمادى البابا فى حربه مع جون. فأغرى ملك فرنسا بغزو إنجلترا وبارك حملته... بل وعينه كذلك ملك على إنجلترا

بجانب فرنسا ... وتلفت جون حوله على اتساع أوروبا كلها، فلم يجد من يناصره ضد البابا وفرنسا فاتجه صوب الأندلس وأرسل رسله إلى عبد الرحمن الناصر مستنجدا به، وتعهد ملك إنجلترا لعبد الرحمن أن يكون في مقابل ذلك، تابعا للدولة الإسلامية، وأن يرسل له جزية سنوية.. والأهم من ذلك هو أن يعتنق هو وأسرته وجميع أفراد الأمة الإنجليزية الإسلام !! ولكن الناصر لدين الله (وهو الذى يتصرف بروح الإسلام ومثله) أجاب رسل الملك بقوله: اغربوا عنى، إن فضائح ملككم قد زكمت أنفى، وهو غير جدير بتحالفى معه، كما أن المسيحية والإسلام لا يتشرفان بأمثاله!! ومن الغريب أن البابا لم يحفظ لعبد الرحمن هذا الجميل. بل أعلن عليه وعلى أمراء الأندلس حربا لا هوادة فيها بعد ذلك!

جامعة الفسطاط

أولى الجامعات فى مصر

دخلت مصر فى الإسلام، واستظلت بلوائه، وحمت رايـــة العروبـــة والإسلام لأول مرة، منذ فتحها القائد العربى المسلم عمرو بن العاص.

وبنى عمر عقب الفتح مدينة الفسطاط لتكون العاصمة الأولى عـــام ٢١هـ، واتخذ الأماكن التى نزل بها جيشه معسكرا عاما، وبنـــى المســـجد، وبنى حوله مدينة الفسطاط، التى توسطها المسجد الجامع، وأخذ يرفع الظلـــم عن كاهل المصريين، ويعاملـــهم بـــالعدل والإنصـــاف والرحمـــة، وأكـــبر المصريون شريعة عمرو ولغته ودينه، فدخلوا فى الإسلام أفواجا.

وكان عمرو بن العاص مع هذه الدنيا المقبلة، والســـعادة الغـــامرة، والسلطة النافذة، أسبق الناس إلى حق، وأبعدهم عن باطل، لم يعهد عليه أثناء ولايته على مصر نقض لعهد، ولا خفر لذمة، ولا انتهاك لحرمة، وقد نـــهض بإدارة شئون مصر إدارة حازمة رشيدة، دستورها مبادئ الإسلام، وشـــعارها الحق والعدل والمساواة والحرية.

وأخذت الفسطاط تتسع وتزدهر، وصارت منذ إنشائها عام ٢١هـــ- ٦٤٢م عاصمة مصر السياسية، ومنارة الدين واللغـــة العربيـــة والمعرفـــة والثقافة، ومقر العمران والحضارة والرخاء أجيالا طولا.

وكان مسجد الفسطاط (أو مسجد عمر بن العاص، أو تاج الجوامـــع، أو الجامع العتيق، أو مسجد الراية) هو أول مسجد قام فى مضـــر العربيـــة، وكان هو بعد قليل جامعة الفسطاط الإسلامية الكبرى.

وكانت المساجد الكبرى فى العواصم الإسلامية، لا تلبث بعد إنشائها بقليل، أن تتحول إلى جامعات تغص بالعلماء وحلقات العلم والدراسة والبحث.

ولقد ازدهرت الفسطاط بتوالى الأيام، وصارت العاصمة الحضارية والعلمية والأدبية والاقتصادية لمصر كلها خلال أجيال عديدة، وصارت من أكثر الأمصار الإسلامية عمرانا، ورخاء وعظمة.

وجلس الصحابة والتابعون فى مسجد العلم، يتصدرون الحلقات العلمية، ومجلس العلم، وشجع ولاة مصر العلماء على نشر الثقافة العربية فى كل مكان من أرض مصر، وأنشئت المساجد وأصبحت حلقاتها دورا للثقافة، يتصدرها المحدثون والفقهاء والعلماء.

وكانت مدينة الفسطاط تؤدى دورها الحضارى فى تاريخ مصر والعالم الإسلامى ووفد عليها الشعراء من الجزيرة العربية كجميل وكثير ونصيب وأيمن بن خريم الأسدى وابن الرقيات، وكان الفرزدق قد عزم على زيارة الفسطاط ووالى مصر عبد العزيز بن مروان (٦٥ - ٨٦هـ) لولا أن جاءه نعى الأمير، ويصف الأصطخرى فى القرن الرابع الهجرى الفسطاط بأنها مدينة مصر العظمى، وبأنها فى غاية العمران والخصب، وبأن مبانيها قد تبلغ الواحدة منها ثمانى طبقات.. وينوه كذلكم ابن حوقل بأهميتها الحضارية، ويقول عنها المقدسى (٣٩٠هـ): أن الفسطاط هى "عاصمة" مصر، ومفخرة الإسلام، ومتجر الأنام، وهى أجل من مدينة دار السلام، ويقول: إن حلقات (أى دروس) مسجدها الجامع ليس فى عواصم الإسلام أكبر منها.

وقام مسجد الفسطاط بدور الجامعة الإسلامية الأولى فى مصر أكثر من سبعة قرون، وعاشت هذه الجامعة العلمية الكبرى فى ظلال ازدهار الفسطاط وعمرانها ورخائها.

وكان قيام الحلقات العلمية والأدبية فى جامع الفسطاط، بعد إنشائه بقليل، رمزا لحركة البناء والتجديد وطموح العقل الإسلامى المصرى المتوثب دائبا.

و أعتقد أن عبد الله بن عمرو بن العاص الصحابى الجليل، وابن أمير مصر عمرو بن العاص، وكان هو المؤسس الأول لهذا الصرح الشامخ، ولهذه الجامعة الإسلامية الأولى فى مصر، وكان عبد الله من أئمة الصحابة والمحدثين، ولابد أن يكون قد صارت له حلقة علمية فى جامع الفسطاط، يتصدرها ليفيد الناس فى دينهم ودنياهم، من حيث يرى الدكتور على اليمنى دردير فى رسالته المخطوط للدكتوراه والتى عنوانها "الحياة الأدبية والنقدية فى الفسطاط ومسجدها الجامع إلى قيام الدولة الفاطمية" أن يزيد بن حبيب الذى بعث به عمر بن عبد العزيز الخليفة الأموى إلى الفسطاط هو مؤسس مدرسة الفسطاط العلمية، وهذه الرسالة القيمة جديرة بأن تتبنى هيئة من هيئاتنا العلمية نشرها لأهميتها.

إن عبد الله بن عمرو بن العاص كان بمثابة الروح البانى للحلقات العلمية الجامعية فى جامعة الفسطاط، وقد أخذت هذه الحلقات تكبر وتنمو شيئا فشيئا، وتتسع دائرتها، وتفيد العقل الجديد فائدة جلية. ويكون يزيد بن حبيب تاليا لعبد الله بن عمرو ابن العاص فى ذلك المجال، ويذكر الدكتور دردير نصا للسيوطى فى كتابه "حسن المحاضرة - ١١٩/١"هو أن يزيد بن حبيب كان "أول من أظهر العلم بمصر، وبين المسائل فى الحرام والحلال وكان الناس قبله يتحدثون فى الترغيب والترهيب والملاحم والفتن"، وكان

الخليفة الأموى عمر بن عبد العزيز قد بعث به إلى مصر، كما بعث كذلـــك بنافع مولى عبد الله بن عمر "المتوفى عام ١٢٠هـ" ليعلـــم أهلـــها الســـنن والقراءات، وقد صار لنافع مدرسة علمية فى القراءات فى جامعة الفســطاط وكان من أعلامها الثقات فى القراءات، ثم تلاه عثمان بن سعيد "ورش" الـذى يذكر ياقوت فى "معجم الأدباء" أنه كان له مجلس عامر.

ومن مدرسة الحديث عطاء بن دينار الهذلى "المتوفى عام ١٢٠هـــ" وهو بالطبع يعد امتداد لفكر عبد الله بن عمرو بن العاص. ومـــن تلاميـــذه يزيد بن حبيب : ابن لهيعة "٩٦ - ١٦٠هـ" والليـــث بـــن ســـعد "٩٤ - ١٧٥هـ"، وعبد الله بن وهب "١٢٤ - ٢٠٠هـ" الذى تأثر بـــآراء أســـتاذه الليث بن سعد بطريق مباشر، وبآراء ابن حبيب بطريق غير مباشر. وكـــان الإمام أحمد بن حنبل يقول عن "ابن لهيعة": عنده الأصول وعندنا الفـــروع"، كما كان يقول لطلابه فى بغداد: إن بمصر - أى الفسطاط - صحيفة فـــى التفسير رواها على ابن طلحة الهاشمى عن ابن عباس، لو رحل واحد منكـــم إلى مصر ليطلع عليها ما كان هذا كثيرا، ولابن وهب كتاب " الجـــامع فـــى الحديث"، والليث بن سعد هو أحد المجتهدين الأعلام وصاحب مذهـــب مـــن المذاهب المشهورة. وكتاب تلميذه ابن وهب "الجامع فى الحديث" أقدم كتـاب مصرى مخطوط بدار الكتب المصرية، وعليه ما يفيد أن الكتاب قرئ فـــى مدينة أسنا عام ٢٧٦ هـ كمـــا ورد فـــى "حســـن المحـــاضرة" للســـيوطى "١٦٨/١".

وهكذا ازدهرت حركة جامعة الفسطاط "جـــامع عمـــرو" العلميـــة، وزادت فيها مجالس العلم، وحلقات العلماء زيادة كبيرة، وأم هـــذا المســـجد الجامع أو الجامعى الكثير من العلماء الأعلام، والأئمة المجتـــهدين، ممـــن

أفادوا العالم الإسلامى، وأدوا له خدمات صادقة فى مجال الثقافة والتعليم، وفى مختلف علوم الشريعة والدين واللغة والأدب والعلوم الأخرى.

وقد قصد الكثير من الشعراء مصر، ووفدوا إلى الفسطاط وجلسوا فى حلقات جامعتها الإسلامية الكبرى.. أبو تمام الطائى "١٩٠ - ٢٣١هـ" تعلم فى هذه الحلقات، وأبو نواس وفد على الخصيب أمير مصر، وجلس فى حلقات المسجد الجامع وأفاد منها.ولما وفد الإمام الشافعى إلى مصر عام ١٩٨هـ وأملى فيها مذهبه الجديد، كان مسجد عمرو أو جامعة الفسطاط، مركز نشاطه العلمى الدينى، حيث صارت له حلقة فيه، وزاوية منه كان يدرس فيها مذهبه، ويدون آراءه، وعلى يديه تخرج كثير من العلماء الذين دونوا المذهب، ونشروا علم أستاذهم، كالربيع بن سليمان المرادى (عام ١٧٤ - ٢٧٠هـ) والبويطى (٢٣١هـ) والربع الجيزى الذى ينسب إليه جمع كتاب الأم وترتيبه بعد البويطى (١٤٦ - ٢٢٦هـ) والحسين بن عبد السلام المعروف بالجمل الأكبر "١٧٠ - ٢٥٨هـ" وكذلك سعيد بن عفير.

وكان عبد الله بن طاهر أمير مصر يجعل سعيد بن عفير ثالث عجائب مصر بعد الهرمين والنيل:

ومن جامع الفسطاط انتشر مذهب الشافعى على أيدى تلاميذه، ومن قبل كانت السيادة للمذهب المالكى الذى كان أول من أعلنه فى مصر ونشره فيها عثمان بن الحكم الجذامى، ومن شيوخ المالكية فيها إصبع ابن الفرج، كما كان أول محاولة لنشر المذهب الحنفى فيها على يد القاضى إسماعيل بن سميع الكندى، الذى ولاه العباسيون عام ١٦٤هـ قضاء مصر، فعمل على نشر مذهب أبى حنيفة فيها.

وكذلك نشر الحنابلة مذهبهم فى أرجاء مصر. ومن علماء مسجد عمرو كذلك إسحاق بن الفرات تلميذ الليث بن سعد (توفى عام ٢٠٤هـ)

وقال عنه الشافعي: ما رأيت بمصر أعلم منه باختلاف الناس، وكذلك إسحاق بن بكر (٢١٨هـ)، وكان يجلس فى حلقة الليث ويفتى بقولـــه، والطحـــاوى وإليه انتهت رياسة الأحناف فى مصر (٢٣٩ - ٣٢١هـ) وبكار ابن قتيبـــة من قضاة مصر الأحناف (٢١٠ - ٢٧٠هـ).

وقامت فى جامع عمرو حلقة تاريخية تصدرها محمد بـــن إســحاق صاحب السيرة (١٥١هـ)، ثم عبد المطلب بن هشام روايته، ومحمد بن أبى الليث، وتتلمذ عليها المؤرخون المصريون: مثل ابن عبد الحكـــم المصـــرى مؤلف كتاب "فتوح مصر" (١٦٩ - ٢٥٦هـ)، ووالده عبد الحكـــم (١٥٠ - ٢١٤هـ)، والكندى، وابن يونس (٢٨١ - ٣٤٧هـ) وعمار ابـــن وســيعة المصرى (٢٨٩هـ)، وابن زولاق المصرى (٣٠٦ - ٣٨٧هـ) الذى ولـــد بالفسطاط.

ومن مدرسة اللغويين النحويين الأدباء فى جامعة الفسطاط : ابن ولاد (٢٣٢هـ) شيخ العربية فى مصر كما يقول السيوطى فـــى كتابـــه حســن المحاضرة (٢٢٨/١)، وأحمد بن يوسف بن الداية صاحب كتاب (المكافـــأة) وقد توفى بعد عام ٢٣٠هـــ، والحسن بن داود بن بابشاذ المصرى النحوى المشهور (٣٣٩هـ)، وأبو جعفر النحاس (٣٣٨هـ) ..ويروى ياقوت فـــى كتابه "معجم الأدباء " أن الطلاب المصريين فى جامع عمرو سألوا ابن جرير الطبرى (٣١٠هـ) أن يملى عليهم شعر الطرماح، وكانوا لا يعرفون شـــيئا منه، وكان ممن سأله فى ذلك عبى بن سراج المصرى، فأجابهم إلى طلبـــهم، وأخذ يمليه عليهم ويفسر غريبه (٣٤٣/٦ - معجم الأدباء).

ومن العلماء الأجلاء أبو بكر بن الحداد (٢٦٥ - ٣٤٥هـ) وكـــان كما يقول السيوطى فى كتابه "حسن المحاضرة" (١٢٦/١) يلقب بفقيه مصر وفصيحها وعابدها، وكان يدرس فى جامع عمرو.

وقد وفد على مصر ابو العباس الناشئ الأكبر (٢٩٣هـــ) وألقى آراءه فى الشعر والنقد فى مسجد عمرو.

وقد تصدر حلقات العلم فى هذه الجامعة الكبيرة بعض الوزراء، من مثل أحمد بن يحيى الوزير، وابن سليمان التجيبى (١٧١ - ٢٥٠هـ) وكان له مجلس عام بجامع عمرو، وقد صحب الشافعى حين وفد إلى مصر ولازم حلقته العلمية فى هذه الجامعة "جامعة الفسطاط" ولازمه، وأخذ الكثير عنه، كما يقول السيوطى فى كتابه "بغية الوعاة" - ص١٧٤، متخذ ا فى ذلك سنن أستاذه الإمام الشافعى الذى كان يجلس فى جامع عمرو يلقى فيه دروسه العلمية الحافلة حتى استأثرت به رحمه الله.

وكما كان أبو نواس من قبل (١٤٥ - ١٩٨هـ) يجلس فى حلقة فى جامعة الفسطاط، ويتخذ له مجلسا أدبيا فى المسجد الجامع، ويلتف حوله الشعراء والأدباء والنقاد، أثناء إقامته فى مصر، كان كذلك يفعل أبو الطيب المتنبى أثناء إقامته فى الفسطاط (٣٤٦ - ٣٩٠هـ)، ويجلس فى حلقة خاصة فى جامعة الفسطاط وحوله الشعراء والنقاد والأدباء يملى وينشد شعره لهم، ويستمع لنقدهم، ويجاريهم ويحاجونه، وكان ممن أخذوا ينقدون شعره: الوزير ابن حنزابة وزير كافور الأخشيدى (٢٥٧هـ) لأن المتنبى أبى أن يمدحه، وكذلك سيبويه المصرى أبو بكر محمد بن موسى الصيرفى، وسواهما. وكان هناك فى حلقة مسجد الفسطاط لفيف من الشعراء يبدون إعجابهم الشديد بالمتنبى وشاعريته، ومنهم عبد الله بن محمد ابن أبى الجوع، وصالح بن رشدين الكاتب، وابن طباطبا العلوى المصرى وسواهم.

وهكذا تعددت الحلقات وتنوعت فى جامعة الفسطاط وتصدرها كبار العلماء والأدباء والمفكرين والنقاد، وخرجت هذه الحلقات أجيالا عظيمة من الباحثين والمتخصصين عاما بعد عام، مما أمد مصر بهالة من الجلال،

وجعلها تتصدر أمم العالم الإسلامى فـــى حمـل رســالة الديــن والثقافــة والحضارة، حتى سبقت بغداد فى هذا المضمار.

واستمرت جامعة الفسطاط تؤدى دورها الحضارى. وبفضـــل هــذه الجامعة أصدر أمير مصر الأموى عبد الله بن عبد الملك أمرا رسميا عـــام ٨٧هـ بأن تكون اللغة العربية هى اللغة الرسمية للدولة.

ولما انتقلت الدولة فى مصر إلى الفاطميين مـن عـام ٣٥٨هـ / ٩٦٨م واستمرت فى أيديهم قرنين كاملين أو يزيد، حتى عـام ٥٦٧ هـ / ١١٧١م. شيد الفاطميون الأزهر، وافتتح فى رمضان من عام ٣٦١هـ، ولم يلبث أن أقيمت الحلقات العلمية فيه، وصار جامعة إسلامية ثانية فى مصـر، ثم أقام الحاكم الفاطمى دار الحكمة أو دار العلم الشهيرة، عـام ٣٩٥هـ/ ١٠٠٥م، والتى نافست الأزهر أيضا فى رسالته العلمية الجامعة، مع ذلك كله فقد كانت مكانة الفسطاط وجامعة الفسطاط قوية ضخمة، لم تتأثر بالعواصف السياسية الهوج، فاستمرت جامعة الفسطاط فى مسارها العلمـى، فالحلقـات العلمية والطلاب، ظلت كما هى، وظل التدريس فى مسجد عمرو طويلا.

وظل مسجد الفسطاط الجامعى منتدى لأهل الفضل والأدب، وحمـل لواء الثقافة الإسلامية العربية خفاقا عاليا، كما كانت الفسطاط مدينة حضارية ذات منزلة علمية وفكرية وأدبية واقتصادية رفيعة.

وإذا كان الجامع الأزهر أخذ ينافس المسجد الجامع الجـامعى فـى الفسطاط فى حلقاته العلمية ومجالسه الأدبية، كما أخذت دار الحكمة تنافسهما معا، حيث صارت مثوى للمجالس العلمية الكلامية والفلسفية، فإن الفســطاط وقد فقد رعاية الدولة لم تضعف قوته ولم تلن قناتــه، واحتفظـت جامعـة الفسطاط بأهميتها وبطابعها الدينى والأدبى معا، وفى فترات ضعف الخلافـة الفاطمية كانت الفسطاط وحلقاتها العلمية تتفوق على القاهرة، مما تحدث عنه

الكثير ممن زاروا مصر من العلماء والرحالة المسلمين، من مثل أمية بن عبد العزيز بن أبى الصلت "٤٥٩هـ" الذى وفد على مصر ودرس الحركة الأدبية والفكرية فيها، وكتب عنها رسالة بقى منها صفحات قليلة هى التى وصلتنا، تحدث فيه ابن أبى الصلت عن غير بعض أدباء مصر وعلمائها، ومجالسهم الفكرية والأدبية، وكانت الفسطاط آنذاك أيضا من أغنى الأمصار الإسلامية، وأكثرها رخاء ... وقد وصفها القاضى محمد بن سلامة القضاعى (٤٥٤هـ) فى القرن الخامس ووصف عمرانها وازدهارها.

وفى الفسطاط كانت سوق الكتب رائجة وكانت صناعة النسخ واسعة النطاق يعيش منها مئات من المشتغلين بالعلم، وحلقات العلم تعقد فى المساجد، وكان جامع عمرو، الذى يسمى تاج الجوامع، مكان التحديث والتدريس منذ عهد الصحابة.

واستمرت هذه الحلقات العلمية كل يوم بلا انقطاع فى جامع عمرو، وكانت لا تقل عن بضع وأربعين حلقة فى عام ٧٤٩هـ، كما يقول السيوطى فى "حسن المحاضرة" (٢/ ١٣٦)

وأحرقت الفسطاط فى عهد الحاكم ثم فى عهد شاور عام ٥٦٤هـ، وفى الحريق الثانى محيت هذه المدينة الإسلامية بما فيها من ذكريات ومكتبات ومدارس ومعاهد علمية، ومع ذلك أخذ الناس يعمرون الفسطاط فى عهد صلاح الدين الأيوبى ، ويسكنونها، ويقيمون فيها، وينظمون الحلقات العلمية والأدبية من جديد فى مسجدها الجامع.

وفى القرن السابع وفد ابن سعيد الأندلسى إلى الفسطاط عام ٦٣٧هـ، ووصفها فى كتابه (المغرب فى حلى المغرب) الذى أفرد منه فصلا كبيرا عن الفسطاط بعنوان "الاغتباط فى حلى الفسطاط" وقد نشر فى مصر، تحدث فيه عن المدينة وأدبائها، وشاعرها أبى الحسن الجزار

(٦٧٩هـ) وكانت الفسطاط قد استردت الكثير من بهائها السالف، وأهميتها الاجتماعية القديمة، وظل مسجد عمرو برغم الأحداث عامرا بحلقات العلم والدرس، وإن كان لم يعد إلى شموخه القديم.

ولم يتخل المسجد الجامع – جامعة الفسطاط – عن دوره الحضارى والفكرى والأدبى حتى بدايات القرن الثامن الهجرى ... ثم سكت الصوت، وخفت الضوء، وحمل الأزهر وحده عبء الثقافة الإسلامية فى مصر العربية، وهكذا انتهى دور جامعة الفسطاط، وأصبحت هذه الجامعة فى ذمة التاريخ.

ذكرى خالدة

- ١ -

هذه كلية اللغة العربية.

إحدى كليات الأزهر الشريف العريق.

كلية من أولى كلياته.

احتلت مكانها الرفيع بين زميلاتها الأول السامقات وخرجت أجيالا من أبنائها برزوا فى كل جانب، وحلقوا فى كل أفق، وعرفت مصر والعالم الإسلامى منزلتهم الرفيعة فى الدين والعلم والأدب واللغة.

ومازال أبناؤها ينتشرون فى كل مكان، ليؤدوا رسالة الأزهر العلمية، وليقوموا بواجبهم فى خدمة الإسلام وفى خدمة القرآن الكريم، ولغة القرآن الخالدة، وعلوم القرآن الموروثة.

- ٢ -

اليوم هو اليوم الحادى والعشرون من ذى القعدة عام ١٣٥١هـ الموافق الثامن عشر من مارس عام ١٩٣٣.

والمكان هو معهد البرامونى الدينى بعابدين، وهو مكان تاريخى، عاشت فيه مدرسة القضاء الشرعى حينا من الزمان، ثم أنشئت فيه كليتان من كليات الأزهر الجديدة، وهى كلية الشريعة الإسلامية، وكلية اللغة العربية.

ومصر الرسمية فى هذا المكان فى ذلك اليوم واليوم السابق له، حيث الملك فؤاد ملك مصر، يحتفل بافتتاح الكليتين الشريعة واللغة، والكلية الثالثة، وهى كلية أصول الدين فى مسجد الخازندارة بشبرا.

وفى اليوم الأول، السابع عشر من مارس عام ١٩٣٣ افتتح كليتى الشريعة وأصول الدين، وفى اليوم الثانى، الثامن عشر من مارس ١٩٣٣ افتتح كلية اللغة العربية بحضور شيخها الجليل الشيخ إبراهيم حمروش رحمه الله، وحضور الشيخ محمد الأحمدى الظواهرى شيخ الجامع الأزهر الشريف(١٩٢٩ - ١٩٣٥م)، وحضور عدد كبير من رجالات الدولة وعلماء الأزهر.

ويدخل الملك ومعه شيخ الأزهر وشيخ الكلية وكبار العلماء الفصول والمدرجات، ويستمع إلى شرح الأساتذة، وإلى حوار الطلبة ثم يخرج وهو مملوء رهبة لعظمة الأزهر الجامعى، ولجلاله العلمى.

- ٣ -

ولمعرفة كيف حدث هذا التطور فى تاريخ الأزهر العلمى نعود إلى الوراء سنين معدودات.

فى عام ١٩٣٠ صدر القانون رقم ٤٩ فى عهد المغفور له الشيخ محمد الأحمدى الظواهرى شيخ الجامع الأزهر (١٩٢٩ - ١٩٣٥)، بقصد إصلاح الحركة التعليمية فى الأزهر، وبمقتضاه أنشئت الكليات الثلاثة: الشريعة - أصول الدين - اللغة العربية، لتحل محل القسم العالى فى النظام السابق: ونص فى هذا القانون على جواز إنشاء كليات أخرى، كما أنشئ تخصص علمى سمى تخصص الأستاذية، أو تخصص المادة، وتخصص مهنى هو تخصص القضاء الشرعى، وتخصص الوعظ والإرشاد، وتخصص التدريس.. وتخصص المادة أو الأستاذية مدته ست سنوات لدخول الامتحان التمهيدى لشهادة الأستاذية النهائية، وتخصص التدريس وما إليه مدته سنتان.

وكان الغرض من هذا هو تفرغ كل طائفة من التلاميذ فى التعليم العالى والتخصص لطائفة من المواد الكثيرة التى كانت تدرس مجتمعة من

قبل فى القسم العالى بالأزهر، وذلك حتى يتيسر للطلاب التفرغ العلمى ويعد هذا القانون أول خطوة رسمية فى تمكين الجامع الأزهر من مسايرة التقدم العلمى والجامعى فى العصر الراهن، وفى تزويد الطلاب بما يجب أن يحيط به رجل الدين من العلوم ومن الاتجاهات.

وبمقتضى هذا القانون نقل طلاب القسم العالى إلى السنوات الموازية لسنواتهم الدراسية فى الكليات الثلاث الجديدة، ما عدا طلاب السنتين الأخيرتين من القسم العالى فتركوا فى أماكنهم ليكملوا مسيرتهم العلمية حيث هم.

وبدأت الدراسة فى الكليات الثلاث فى الأماكن التى أعدت لهم مؤقتا لحين بناء أماكن جديدة.

ولم تفتتح هذه الكليات الثلاث رسميا إلا فى مارس ١٩٣٣.

وكانت مواد الدراسة فى كلية اللغة يومئذ كما حددها القانون هى: النحو – الوضع – الصرف – المنطق – علوم البلاغة – الآداب العربية وتاريخها– تاريخ العرب قبل الإسلام وتاريخ الأمم الإسلامية – التفسير – الحديث – الأصول – الإنشاء – فقه اللغة.

وبعد ذلك أضيفت إلى هذه المواد: العروض – المطالعة – المحفوظات.

– ٤ –

كان أساتذة الكلية آنذاك مجموعة مختارة من أساتذة الأزهر الشريف، ومن مدرسة دار العلوم، ومن بينهم الشيخ محمد الغمراوى – الشيخ نور الدين الحسن (السودانى) – الشيخ محمد الطنطاوى – الشيخ محمد محيى الدين عبد الحميد – الشيخ غرابة – الشيخ عبد الحليم قادوم – محمد هاشم عطية – صالح هاشم عطية – على الجارم – الشيخ حامد مصطفى – الشيخ

عبد الله الشربيني – محمود مصطفى – ثم جاء بعدهم: الشيخ أحمد شفيع – الشيخ عبد الله الشربيني – الشيخ عبد الجواد رمضان– الشيخ محمد الزفزاف – الشيخ محمد أبو النجا – الشيخ محمد الطنيخي – الشيخ عبد الله عفيفي (إمام الملك) – الشيخ عبد المتعال الصعيدي – وسواهم.

وكانت الدراسة تبدأ من الثامنة صباحا حتى الثانية بعد الظهر.

وكان الالتحاق بالكلية مبنيا على امتحان شفوى وتحريرى للمتقدمين من حملة الثانوية الأزهرية، ولم يكن عدد طلاب كل فرقة من الفرق الأربع يزيد على الثلاثين طالبا، أما تخصص المادة فعدد الذين يقبلون فيه الخمسة الأوائل في كل شعبة، ويقبل تخصص التدريس كل المتقدمين إليه من حملة شهادة الدراسة العالية حيث يمنح الخريجيون من شهادة العالمية مع الإجازة في التدريس، ويمنح المتخرجون من قسم تخصص المادة (الأستاذية) شهادة العالمية من درجة أستاذ في البلاغة والأدب أو في النحو، ويعين حاملو شهادة هذا القسم في وظائف التدريس بالكليات وبأقسام التخصص. ومن هذا القسم حصلت على الدكتوراه عام ١٩٤٦ في الأدب والنقد والبلاغة.

وقد تولى عمادة الكلية طائفة من كبار الشيوخ والأساتذة أولهم الشيخ إبراهيم حمروش عميد كلية اللغة، ثم عميد كلية الشريعة، ثم وكيل الأزهر، ثم عميد كلية الشريعة، ثم وكيل الأزهر، ثم شيخ الأزهر الشريف (فبراير عام ١٩٥١ – ١٩٥٢) وأخرهم الأستاذ الدكتور على صبحي عميد الكلية الحالي وهو من أساتذة الأدب والنقد في الكلية.

كما تولى وكالتها كبار الأساتذة فيها ومنهم : الشيخ حامد محيسن – الشيخ محمد أبو النجا – الشيخ محمد كامل حسن – الشيخ محمد محيى الدين عبد الحميد – الشيخ أحمد إبراهيم شعراوى – الشيخ طه عبد الحسيب – الشيخ عبد اللطيف خليف – الشيخ عبد الرحمن الكردى – وغيرهم.

وإذا كانت الكلية قد افتتحت رسميا يومـا ١٨ مـارس ١٩٣٣ فـإن الدراسة قد بدأت فى المحرم عام ١٣٥٢هـ - ١٩٣١م، قبل افتتاحها رسـميا بنحو عامين..

واليوم يكون قد مضى على بدء الدراسة فيها سبعون عامـا. وهـو تاريخ قصير فى حساب الزمن، ولكنه تاريخ طويل فى حساب العلم والعلماء. خرجت الكلية طائفة كبيرة من الأساتذة والدكاترة...

من بينهم أساتذتها الذين شغلوا مناصب علمية فيها طول هذه المـدة التى تزيد على نصف قرن.

ويوم اعتمد مجلس الأزهر الأعلى تكوين هيئات التدريس فى كليـات الأزهر، وذلك فى ٢٤ من مارس ١٩٥١ كانت هيئة التدريس فى كلية اللغة تتألف من طبقة كبيرة من الأساتذة حـرف أو ب و جــ ومـن الأسـاتذة المساعدين حرف أ و ب ومن المدرسين حرف أ.

كان من بينهم : خفاجى - حسن جاد - محمد نايل - عبـد العظيـم الشناوى - عبد الحسيب طه - محمد عبد الخالق عظيمة - محمـود فـرج العقدة - عبد المقصود السعداوى - محمد رفعت فتح الله - عبد المقصـود السعداوى - صادق خطاب _توفى فى يناير ١٩٨٥) - محمد كامل الفقى.

وقد تولى من أساتذة الكلية مشيخة الأزهر الشيخ إبراهيـم بيقـى، وتولى رياسة جامعة الأزهر من أساتذتها كل م ن : الدكتور محمد البـهى - الشيخ أحمد الباقورى - الدكتور بدوى عبد اللطيف - الدكتور عـوض الله حجازى - الدكتور محمد الطيب النجار - الدكتور محمد السعدى فرهـود - وتولى النيابة عن رئيس الجامعة من أساتذة الكلية الدكاترة والأستاذة : أحمـد شعراوى - إبراهيم نجا - محمد السعدى فرهود - عبد اللطيف خليف.

وممن أنجبتهم الكلية:

١- الشيخ الباقورى والشيخ عبد العزيز عيسى وقد تولوا وزارة الأوقاف.

٢- الشيخ محمد متولى الشعراوى الذى تولى وزارة الأوقاف وهو داعية إسلامى كبير إلى أنه إمام من أئمة الإسلام.

٣- الشيخ محمد على النجار، والشيخ حمروش، والشيخ محمـــد محيـــى الدين عبد الحميد، والدكتور محمد الطيب النجار، والدكتور محمد رفعـت فتح الله، وكانوا أعضاء فى مجمع اللغة العربية.

٤- الدكتور أحمد الشرباصى الداعية الإسلامى الكبير.

٥- الأستاذ محمد فهمى عبد اللطيف الصحفى المشهور.

٦- الأستاذ أحمد صقر - المحقق المشهور.

٧- الشيخ الدكتور إبراهيم أبو الخشب الأديب والناقد والشاعر المشهور وقد توفى فى نوفمبر ٢٠٠٠.

٨- د. حسن جاد الشاعر الكبير المعروف، وقد تولى عمادة كلية اللغـــة بالقاهرة نحو عامين.

٩- الشيخ محمد عبد الخالق عظيمة الذى نال جائزة فيصـــــل العالميـــة، وتوفى إلى رحمة الله عام ١٩٨٣.

١٠- الشاعر كيلانى حسن سند.

١١- الشاعر الأستاذ أحمد صقر مدير المدرسة السعيدية سابقا.

١٢- **إبراهيم نجا الشاعر (١٩٦٩م)، وهو غير الدكتور عميد الكلية ونائب رئيس الجامعة الأسبق رحمهما الله.**

١٣- عدد كبير من وكلاء الوزارات المختلفة، ومن كبار موظفى الدولـــة، ومن الأدباء والشعراء والنقاد والصحفيين، ممن يحتـــاج فـــى معرفـــة أسمائهم وعناوينهم إلى مجهود كبير، ومن بينهم الشاعر الكبير محمـــد على مخلوف والشاعر بكر موسى هلال والشاعر محمد إبراهيم أبو سنة.

١٤- الأستاذ أحمد عبد اللطيف بدر وهو أديب وشاعر ممتاز.

١٥- الأستاذ طه حراز وهو أديب الفكاقة المبدع.

١٦- محمد بدر الدين الشاعر الإسلامى المعروف.

١٧- محمد إبراهيم أبو سنة وهو من شعراء الشعر الحر المشهورين.

١٨- تاج السر الحسن (سودانى) شاعر مشهور.

١٩- محيى الدين فارس (سودانى) شاعر مشهور.

- ٦ -

وماذا أقول عن هذه الكلية الشامخة التى أدت وتؤدى رسالة كبـــيرة نحو اللغة العربية وآدابها وعلومها، ونحو الثقافة الإسلامية وتراثها الخالد؟

إن تاريخ الكلية ومفاخرها جزء كبير من تاريخ الأزهـــر العريـق ومفاخره، وصفحة مضيئة فى سجل المجد والشرف والعزة والنضال من أجل الدين ولغة القرآن الكريم، ومن أجل علوم القرآن، وثقافات الإسلام وتراثه.

إمارة الغساسنة فى الشام
وموقفها من الإسلام فى عهد الرسول

-١-

موضوع جديد من موضوعات السيرة النبوية لم يقدم أحد بحثا عنه من قبل، ولم يدرسه الدارسون القدامى ولا المحدثون، مع صلته الوثيقة بالسيرة النبوية الشريفة ... وكنت قد كتبت من قبل عن موضوع جديد آخر من موضوعات السيرة النبوية ،لم يدرسه أحد من قبل، وهو "مؤاخاة رسول الله ﷺ بين المسلمين الأولين فى مكة" .. ولا شك هناك جوانب كثيرة فى السيرة النبوية الشريفة لم تبحث من قبل، وهى جديرة بالتسجيل والدراسة والبحث العلمى.

وإمارة الغساسنة بالشام إمارة عربية صغيرة قامت على حدود الجزيرة العربية من ناحية الشمال الشرقى، فاصلة بين عرب الجزيرة العربية وبلاد الإمبراطورية الرومانية الشرقية (البيزنطية). وكان موقعها فريدا، ومن أجل ذلك فرضت عليها الإمبراطورية الرومانية حمايتها وأيدتها بنفوذها ومساعداتها، لتقوم بمهمة حماية حدودها من هجمات القبائل العربية من ناحية، ولتكون فاصلا بينها وبين مملكة كسرى من ناحية ثانية، ولتظل قوة ضاربة تساعد الدولة ضد أعدائها من الفرس والمناذرة ملوك الحيرة.

ومن أجل ذلك تعهد الروم بأن يمدوا الغسانيين بأربعين ألف جندى من جند الروم عند وقوع اعتداء عليهم، وتعهدت غسان بأن تمد الروم بعشرين ألف محارب إذا تعرضت بلاد الروم لعدوان فارس عليها...

وأصل الغسانيين من عرب ازد اليمن، أقاموا مدة فى تهامة، حيث نزلوا فيها على ماء يسمى (غسان)، فعرفوا بأزد غسان، ثم هاجرو إلى الشمال ونزلوا على أطراف الجزيرة العربية الشمالية الشرقية، وأثبتوا صلابة وبسالة فى الحروب، مما جعلهم موضع إعجاب الروم، ومن أجل ذلك أثروهم على القبائل العربية الأخرى، واتخذهم قيصر الروم عمالا له، وبذلك صارت لهم الرياسة على القبائل العربية الأخرى فى هذه المنطقة، وعقدوا معهم المحالفة العسكرية السالفة الذكر.

ولم تكن عاصمة الغسانيين واحدة فى مبدأ دولتهم كانت عاصمتهم معسكرا متحركا، ثم اتخذوا لهم فيما بعد عاصمة فى (الجابية): ويذكر بعض المؤرخين أن عاصمتهم كانت دمشق، أو جلق القريبة تمنها، ويذكر آخرون: البلقاء، وتدمر، وصفين، على اختلاف بينهم ... ومما لا ريب فيه أنهم أقاموا فى جلق مدة غير قصيرة. وتقع جلق إلى الجنوب الغربى من دمشق، وإلى الشمال من نهر اليرموك..

والملوك الغسانيون جدهم جفنة، فهو جد أسرة الغساسنة، ويقول حسان ابن ثابت الشاعر الإسلامى الخالد فى مدحهم، وكان فى الجاهلية يقصدهم مادحا:

أولاد (جفنة) حول قبر أبيهمو قبر ابن مارية الكريم المفضل

ولغة الغسانيين هى العربية وقد اتخذوا لغة الشام الآرامية لغة ثانية لهم. وكانوا بحكم مجاورتهم للروم يعرفون الرومية.

ويرى حمزة الأصفهانى أن الغسانيين حكموا الشام ستة قرون، وتولى عرش الإمارة منهم إثنان وثلاثون ملكا. أما ابن قتيبة فيرى أن ملوك هذه الإمارة بلغوا أحد عشر ملكا. ويجعل المسعودى عددهم عشرة، والجرجانى يذكر أن عددهم تسعة. أما المستشرق (نولدكة) الحجة فى

تاريخ الغسانيين فيرجع أن عددهم عشرة وأنهم حكموا مدة قـــرن وبعــض القرن من الزمان.

ومن أشهر الملوك الغسانيين:

١- الحارث الثانى ابن جبله (٥٢٩ – ٥٦٩م)

وقد عاصر جوستنيان قيصر الروم، وكسرى أنوشروان ملك الفرس، والمنذر الثالث ملك الحيرة ومنحه القيصر البيزنطى رتبة ملك، وهى ثـــانى رتبة فى الدولة البيزنطية وكان الإمبراطور يقصد من وراء ذلك أن يجعـــل منه حليفا قويا فى مواجهة المنذر الثالث ملك الحيرة الخاضع لحماية الفرس، وحين غزا كسرى بلاد الشام استنجد القيصر جوستنيان بالحارث الذى أثبــت بسالة نادرة جعلته موضع ثقة الإمبراطور وثنائه. ويذكر بعض المؤرخين أن الحارث زار القسطنطينية (بيزنطة).

٢- المنذر بن الحارث:

تولى عرش الإمارة بعد موت أبيه عام ٥٦٩م، ووقعت مناوشات بينه وبين الفرس، وبينه وبين الروم، وأخذه الروم أسيرا إلى عاصمتهم، وأقــاموا على الإمارة عاملا مكانه: وتمزقت عرى وحدة الإمارة فاختارت كل قبيلـــة منها أميرا لها.

٣- جبلة بن الايهم:

ولى دراسة مستقلة عنه وعن موقفه من الإسلام ليس هنـــا مجــال إثباتها.

وقد عاصر تكوين الدولة الإسلامية الكــبرى وأســلم اثــر معركــة اليرموك عام ٦٣٦م، ثم ارتد عن الإسلام، ولحق بقيصر فى القســطنطينية، ومات فيها وكان هو أخر ملوك الغساسنة، وفى عهده انتهت دولة الغساســنة، وصارت جزء من الدولة الإسلامية.

وبالضرورة كانت إمارة الغساسنة هى الصلة القوية بين العرب وقيصر بالروم.

ولما عقدت قريش معاهدة تجارية مع الدولة البيزنطية كان الغسانيون هم الذين مهدوا الطريق لعقد هذه المعاهدة وكانت قوافل قريش التجارية إلى الشام تتجه غالبا إلى (بصرى)، وهى عاصمة الغسانيين التجارية، وإحدى مدنهم المشهورة، وبالقرب منها أذرعات، وهى مدينة مشهورة أيضا، ولم يكن يقع حادث فى الجزيرة العربية ألا ويكون نبؤه عند الملك الغسانى، الذى يبلغه بدوره إلى قيصر.

وكذلك كان الملك الغسانى هو الذى يتولى بطرق خفية توجيه سياسة القبائل العربية فى الحجاز وشمالى نجد، وهو الذى يخطط للشئون العربية من عاصمة إمارته على قدر ما يبلغه نفوذه...

ولما فر عدى بن حاتم رئيس طئ من حائل أمام الفتح الإسلامى فى عهد الرسول صلوات الله عليه اتجه توا إلى الشام وإلى الغساسنة فيها. ليكون فى انتظار الظروف المواتية، ليعود إلى حائل، وفق تقديره وأوهامه.

وكان الشعراء فى الجاهلية يقصدون الملك الغسانى مادحين، كما فعل النابغة الذبيانى، وحسان بن ثابت، فى الجاهلية وسواها.

وحين نفى الملك اللخمى المنذر الثالث عمرو بن هند (٥٥٤ - ٥٦٩م) ملك الحيرة الشاعر الجاهلى المتلمس من بلاده ذهب إلى الغساسنة فى الشام، وأقام فى بصرى، وتوفى فيها عام ٥٨٠م.

والملك الغسانى الحارث بن أبى شمر هو الذى مهد الطريق أمام رحلة أمرئ القيس بن حجر الكندى إلى قيصر الروم بعد قتل القبائل العربية لأبيه حجر ملك كنده بمساعدة المناذرة ملوك الحيرة وكان غرض أمرئ القيس من وراء هذه الرحلة أن يساعده القيصر على إعادته لعرش آبائه الذى

فقده وأن يحول دون تدمير مملكة كندة إلى الأبد وأن يؤيده للانتقام من قتلة أبيه من أسد وغطفان وهكذا كانت المناذرة ومن ورائهم الفرس خلف الثورة التى اقتلعت عرش مملكة كندة، وأراد امرؤ القيس وضع الغساسنة ودولة بيزنطة فى الصورة لاستعادة عرش آبائه وأجداده، وبذلك وقعت الجزيرة العربية بين شقى الرحى .. ولا ندرى السبب فى فشل رحلة أمرئ القيس، وامتناع القيصر عن مساعدته ومن الجدير بالذكر أن السموؤل كان هو الذى مهد أولا طريق أمرئ القيس عند الملك الغسانى ومن أجل ذلك تعرض لانتقام القبائل العربية منه، وكان السموؤل عميلا للغساسنة، وكان يتخذ من حصنه مركزا للمؤامرات ضد القبائل العربية، ولى بحث منشور عن السموؤل فى كتابى "مشاهد من السيرة العطرة" بعنوان "وفاء السموؤل أسطورة"، وهو جدير بالتأمل لما فيه من وثائق مجهولة عن تاريخ ما قبل الإسلام، وكان السموؤل أمه غسانية، وأبوه كان يهوديا، ولاعتبارات كثيرة جعل نفسه عميلا للغساسنة، وكان قصره الأبلق فى تيماء، أو قريبا منها، مركزا لجمع المعلومات عن القبائل العربية ولإيصالها إلى الملك الغسانى فى عاصمته..

- ٢ -

هذه الحقائق التى ذكرناها آنفا تساعدنا مساعدة كبيرة على استجلاء حقيقة الصلة بين الغساسنة والدولة الإسلامية فى المدينة، على عهد الرسول الأعظم، محمد صلوات الله وسلامه عليه.

ومن المؤكد أن هذه الصلة بين الرسول والغساسنة لم تكن أبدا صلة سلام، بل صلة عداء مستمر، وحرب دائمة غير معلنة وخصومات ومؤامرات من جانب الغسانيين ضد رسول الله والمسلمين والمدينة منذ هجرة الرسول ﷺ، من مكة إلى المدينة ... وكان يجعل من هذه الصلة صلة عدوان أن الغساسنة كانوا نصارى، شأنهم فى ذلك شأن دولة الروم الشرقية

وكانوا لا يؤثرون دينا آخر على دينهم من ناحية، وكانوا كذلك يخافون من الدولة الإسلامية فى المدينة على دولتهم من ناحية ثانية، وكان القيصر واتباعه الغساسنة لا يحبون أن ترتفع راية فوق رايتهم ولا بجوارها من ناحية ثالثة. والغساسنة هم – أولا وقبل كل شىء – أتباع لقيصر سياسيا واقتصاديا وحضاريا، فكيف وقد رأى القيصر ما رأى فى تبوك (رجب عام ٩هـ) وفى مؤته من قبل، وشاهد وقوف الإسلام وجها لوجه أمام الإمبراطورية البيزنطية، التى لم يستطع كسرى ودولته وجيشه الوقوف أمامها.

وكانت أحوال بلاد الشام آنذاك فى غاية السوء، وكان الناس هناك على أشد ما يكونون من الحرمان. وقد حكم اليونان الشام مدة ٣٦٩ سنة، كانت كلها حروبا وخلافات، ثم حكمها الرومان سبعمائة سنة، سادها الفوضى والاضطراب والاستبعاد والفقر والحرمان.

ويقول مؤلفو كتاب "تاريخ العالم": إن المقاطعات العربية التى وقعت فريسة تحت حكم الروم لم تسلم هى الأخرى من الفوضى والاضطراب، وكان العرب فى الشام كثيرا ما يبيعون أبناءهم ليوفوا بما عليهم من الأموال للدولة.

- ٣ -

ومن البدهى أن الملك الغسانى فى عاصمته كان يتتبع باهتمام شديد أخبار الجزيرة العربية وبخاصة الحجاز منذ البعثة النبوية الشريفة عام ٦١٠م، أى منذ ظهور الإسلام ونزول الرسالة، وكان يوالى استقاء الأخبار من منابعها:

- عما حدث بين الرسول وقريش.
- وما تلا ذلك من الهجرة النبوية الشريفة إلى المدينة.

- وعما حدث بعد الهجرة من خلافات بين الرسول وقريش.

- وعن هزيمة قريش فى بدر (فى السنة الثانية للهجرة عام ٦٢٤م).

وفى موقعة الأحزاب (٦٢٧م) كما علم الملك الغسانى بصلح الحديبية (عام ٦هـ - ٦٢٨م) وفتح مكة (٨هـ - ٦٣٠م)، وحنين والطائف فى العام نفسه.

وعلم كذلك بتصفية مراكز الجاسوسية والتبعية اليهودية فى الحجاز والجزيرة العربية، بإجلاء بنى النضير (٤هـ - ٦٢٦م) واستيلاء الرسول على حصون بنى قريظة (٥هـ - ٦٢٧م) وعلى حصون خيبر (٧هـ - ٦٢٩م).

وبالقضاء على الرؤوس التى كانت تعمل فى الخفاء لدولة الغساسنة، من مثل كعب بن الأشراف اليهودى، الذى خرج فى السنة الثالثة للهجرة بعد معركة بدر الكبرى إلى مكة، ليحرض قريشا على رسول الله، ويستثرها لحربه راثيا بشعره قتلى قريش فى بدر، فقتله الفدائيون المسلمون من الأوس، وعلى رأسهم محمد بن مسلمة.

ومن مثل أبى رافع الذى كانت له مواقف مشابهة لمواقف كعب فقتلته الخزرج لعداوته للإسلام ولرسول الله.

وكان أبو عامر الأوسى اليهودى من أشد الناس عداوة لرسول الله ﷺ وكان شريفا فى قومه الأوس، وكان ترهب فى الجاهلية ولبس المسوح، فكان يقال له: الراهب. فلما ظهر الإسلام فى المدينة وعلت رايته، أبى أبو عامر إلا مفارقة المدينة، ومفارقة الله ورسوله، فجاء إلى رسول الله، وقال له فى ثورة الغاضب الحاقد:

- ما هذا الدين الذى جئت به؟

- فرد عليه رسول الله/ جئت بالحنيفية، دين إبراهيم.

- فقال أبو عامر : فأنا عليها.

- فرد عليه رسول الله: إنك لست عليها.

- قال أبو عامر: بل إنك يا محمد أدخلت فى الحنيفية ما ليس منها.

- فقال له رسول الله صلوات الله عليه: ما فعلت، ولكنى جئت بها بيضاء نقية.

فخرج أبو عامر من لدن رسول الله إلى مكة إلى قريش.

وفى معركة أحد كان أبو عامر يتقدم صفوف قريش، وينادى على الأوس فى جيش رسول الله ليخذلوه، فأذله الله، ولعنه الأوس، ووقفوا مع رسول الله صفا واحدا كالبنيان يشد بعضه بعضا ... ولما فتحت مكة وهزمت قريش خرج إلى الطائف، فلما أسلم أهل الطائف فر إلى الغساسنة فى أرض الشام، ولحق بهم، فمات هناك طريدا غريبا وحيدا، وكان قد خرج معه إلى الغساسنة من الطائف: علقمة بن علاثة، وكنانة بن عبد ياليل، ولما مات أبو عامر فى بلاد الغساسنة اختصم علقمة وكنانة فى ميراثه إلى قيصر، فقال قيصر لهما: إنما يرث كنانة.

وكما أذل الله أبا عامر، أذل كذلك عبد الله بن أبى بن سلول، وكان شريفا فى قومه لم تجتمع الأوس والخزرج قبله ولا بعده على رجل من أحد الفريقين غيره، وكان قومه قد نظموا له الخرز ليتوجوه وليملكوه عليهم، فلما انصرف قومه عنه إلى الإسلام ملكه الغضب والحقد والحسد لرسول الله، حيث ظن فى نفسه أن رسول الله قد سلبه ملكا، فدخل فى الإسلام نفاقا، وصار يدبر الدسائس والمؤامرات لرسول الله فى الخفاء حتى أذله الله، وأظهر دينه، ونصر رسوله، وكبت أعداءه وخصومه، فعاشوا فى هوان وذله حتى لقوا الله وهو أحكم الحاكمين.

وكانت مؤامرات اليهود ضد رسول الله لا تنتهى، فمعركة الأحـزاب كانت بتدبيرهم، ومن أجل خيانتهم غزا رسول الله، صلوات الله عليه، بنـى قريظة، ودمر حصونهم، وقتل الفدائيون المسلمون من الخزرج أبـا رافـع لتحريضه الأحزاب، وجمعه لهم لحرب رسول الله كمـا دمـر رسـول الله حصون خيبر كذلك.

كل ذلك كان وقعه على الملك الغسانى وقع الصاعقة، وبخاصـة أن مراكز استعلاماته فى أرض الحجاز، وفى الجزيرة العربية، كانت قد أغلقت، بالقضاء على عملائه من اليهود وغيرهم.

– ٤ –

وفوجئ الغسانيون والروم بأحداث غزوة مؤتة (٨هـ/ ٦٣٠م) حيث دارت الحرب بين المسلمين والروم فى البلقاء وفى مؤتة ... ثـم بـأحداث غزوة تبوك، وهى حرب حقيقية مع الروم.

لقد هزت هذه الأحداث الكبيرة كلها الملـك الغسـانى فـى جلـق، والقيصر البيزنطى الجالس على عرشه فى بيزنطة، هزا عنيفا، كما لم يحدث لها من قبل.

– ٥ –

ولا ندرى: هل استعانت قريش بالملك الغسانى لينصرها فى حروبها مع رسول الله ﷺ أم أنها لم تفعل ذلك؟ – وفى اعتقادى أن أبا سفيان قبـل إسلامه فى فتح مكة، كان وثيق الصلة بالغسانيين وكـان يحـرج بقوافلـه التجارية إلى بلادهم وربما كان قد فاتحهم فى شىء من ذلك، وكان أبو سفيان قد قابل (عام ٥٣هـ – ٦٢٥م) فى بعض رحلاته التجارية القيصـر فـى أرض الشام وتحدث إليه القيصر فى أمر رسول الله صلوات الله عليه، وكمـا بعثت ثقيف من الطائف، أثناء حصار رسول الله لها بعد فتح مكة، بوفد إلـى المقوقس للاستنصار به فى حربهم مع رسول الله صلوات الله عليه، ولعقـد

محالفة عسكرية معه، كذلك ربما يكون من الأرجح أن قريشا صنعت ذلك أيضا مستنصرة بغسان، ولكن يبدو وأن تلاحق الأحداث حال دون انتصار الغسانيين لقريش، ولكن يبدو أن تلاحق الأحداث حال دون انتصار الغسانيين لقريش، ودون معونتهم لهم.

وقد يكون من المعوقات لدخول الغسانيين فى الموقف المتأزم بين رسول الله وقريش ولصالح القرشيين أن هوى قريش كان مع الفرس. فحين غلب الروم عام ٦١٦م أمام الفرس أظهرت قريش فرحتها الشديد بهذا الانتصار الفارسى، لأن الفرس وثنيون مثلهم،، وحزن المسلمون حزنا شديدا لأن الروم أصحاب كتاب، وكان ذلك قبل الهجرة بست سنوات، ولابد أن الروم ظلوا حانقين على قريش من أجل ذلك.

- ٦ -

وفجأة بلغت الأحداث ذروتها، إذ وقع حدث كبير نبه أذهان القيصر وتابعه الملك الغسانى إلى خطورة الموقف السياسى بينهما وبين رسول الله ﷺ.

ففى جلق عاصمة الملك الغسانى: الحارث بن أبى شمر ملك الغساسنة فى رواية، أو الملك جبلة بن الأيهم الغسانى كما قيل فى رواية أخرى. نزل شجاع ابن دهب الأسدى، من صحابة رسول الله ﷺ، يحمل رسالة من محمد صلوات الله عليه، إلى الملك الغسانى يدعوه فيها إلى الدخول فى الإسلام، ونصها:-

"بسم الله، من محمد رسول الله، إلى الحارث بن أبى شمر[1]، سلام على من اتبع الهدى وأمن بالله وصدق رسوله. وأنى أدعوك إلى أن تؤمن بالله وحده، لا شريك له، يبقى لك ملكك[2].

---

[1] هو طبعا الملك الغسانى الذى حكم دمشق وما يتصل بها، تحت إمرة البيزنطيين، ومات عام (٨هـ - ٦٣٠م).

[2] النص عن الزرقانى ٣٥٦/٣ والقسطلانى ٣٩٦/١.

وفى بيزنطة نزل الصحابى المسلم دحيه الكلبى يحمل رسالة من محمد رسول الله ﷺ إلى هرقل قيصر الروم، عن طريق حاكم بصرى، يدعوه فيها كذلك رسول الله ﷺإلى الدخول فى دين الله، ونص الرسالة:

"بسم الله، من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى أما بعد: فإنى أدعوك بدعاية الإسلام، اسلم تسلم، يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإنما عليك إثم الأريسيين[1] يا أهل الكتاب: تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم، ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله، فإن تولوا فقولوا : أشهدوا بأنا مسلمون"[2].

ويقص أبو سفيان (٣١هـ) قصة لقائه فى بيت المقدس (إيلياء) بقيصر (عام ٣هـ – ٦٢٥م) حيث سأله القيصر عن الرسول ورسالته بالتفصيل، وقال له القيصر فى نهاية اللقاء: لئن كنت صدقتنى عنه فليغلبن على ما تحت قدمى هاتين، لوددت أنى عنده فأغسل قدميه. ويقول أبو سفيان فقمت من عند قيصر، وأنا أضرب بإحدى يدى على الأخرى وأقول : يا لعباد الله، لقد أمر أمر ابن أبى كبشه (محمد)، أصبحت ملوك بنى الأصفر (الروم) يهابونه فى ملكهم وسلطانهم ويذكر ابن سعد فى الطبقات أن أبا سفيان كان يزور هرقل كلما ذهب إلى أنقره ... وهذا مما يثبت صلته الوثيقة بالروم إلى صلته الأوثق بالغساسنة.

---

(1) هم الفلاحون والعمال لأنهم تبع لسادتهم وكبرائهم – وذهب الدكتور أحمد الحوفى أنها نسبة إلى داعية من دعاة التوحيد الخالص فى مصر اسمه أريوس (مجلة مجمع اللغة العربية عدد ٤٥ – مايو ١٩٨٠ ص ٧٣).

(2) النص عن تاريخ الطبرى ٨٧: ٣ والكامل لأبن الأثير ١/٢ وصبح الأعشى ٣٧٧/٦ – وتاريخ هذه الرسالة عام ٩هـ أو ٨ أو ٦ (٨٩/٣ الطبرى، ٨٠/٢) الكامل لابن الأثير ٣٨٥/٢ الإصابة لابن حجر ١/ ٤٦١ الاستيعاب لابن عبد البر.

وكذلك وصل إلى الإسكندرية خاطب بن أبى بلتعة الصحابى اللخمى، الصحابى الجليل يحمل رسالة، من رسول الله صلوات الله عليه إلى المقوقس، حاكم الإسكندرية للروم، يدعوه فيها أيضا إلى الإسلام ونصها:

"بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد عبد الله رسوله، إلى المقوقس عظيم القبط ... سلام على من اتبع الهدى ... أما بعد فإنى أدعوك بدعاية الإسلام ، اسلم تسلم، يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فعليك إثم كل القبط ... يأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سوءا بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله، ولا نشرك به شيئا، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون"[١].

حدث كبير هز دولة الروم وإمارة الغساسنة التى تعيش فى حماية دولة الروم، كما هز الإسكندرية وحاكمها الرومانى المقوقس، الذى يحكم شعبا يعد أكبر الشعوب الخاضعة للإمبراطورية البيزنطية، وأعرقها حضارة ومدنية هذه الرسائل، وكذلك رسائل رسول الله صلوات الله عليه إلى كسرى والنجاشى وإلى الملوك والأمراء فى الجزيرة العربية فى ذى الحجة (٦هـ - ٦٢٨م) كما يذكر الطبرى[٢] أو فى ربيع الأول من السنة نفسها[٣] أو فى محرم من العام السابع للهجرة[٤]، وكلام ابن الأثير يوحى بأن ذلك كان فى العام الثامن للهجرة... وإلا رجح أن هذه الرسائل بدأت منذ ذى الحجة من عام ستة من الهجرة واستمر إرسالها بعد ذلك.

---

(١) أورد الطبرى والقلقشندى نصا آخر لهذا الكتاب بمخالفة يسيرة فى الألفاظ، مثل فإن توليت فعليك غضب الأريسيين – أى الفلاحين وعامة الشعب.

(٢) ٢٨٨/٢ الطبرى.

(٣) ٢٨٦/٢ الطبرى.

(٤) ١/٢ : ١٥ طبقات ابن سعد، و١٠٣/٨ فتح البارى لابن حجر.

ومن المؤكد أن الملك الغسانى قابل رسالة رسـول الله صلـوات الله عليه بالامتعاض ورفض الإذعان وتقول المصادر: أنه أمر قواته بالاحتشاد والزحف على المدينة، ولكن هرقل تدخل فى الأمر ودعاه إلى بيت المقدس[1].

أما المقوقس وهرقل فقد ردا ردا سياسيا لبقا لا استفزاز فيه ولا تحرش، ورد النجاشى بالحسنى، ورد كسرى بتمزيق الرسالة، فمزق الله ملكه.

كل هذا يوضح لنا توضيحا كاملا أن الرسول ﷺ كان يعلم شأن دولة الغساسنة فى السياسة الدولية، وكان يرى دعوة ملكها وشعبها إلى الإسلام كما رأى دعوة غيرها من ملوك وأمم الأرض الظاهرين على ساحة السياسة الدولية.

وهذا كله مما يوضح بجلاء أن جزيرة العرب على عهد رسـول الله ﷺ كانت وثيقة الصلة بالعالم البيزنطى، كما كانت وثيقة الصلة أيضا بالعالم الساسانى، وذلك عن طريق التجارة وعن طريق الدويلات العربية الواقعة فى أطراف الجزيرة، والمتحالفة مع الروم أو مع الفرس.

وكانت الرقعة العربية إبان ذلك تهتز اهتزازا شديدا، منذ تولى هرقل حكم الإمبراطورية البيزنطية عام ٦١٠م، وهو عام البعثة النبوية الشريفة ... إذ كانت الانتصارات الفارسية على جيوش الروم، قد بلغت ذروتها وكان ميدان المعركة الكبير يقع فى بلاد الشام بين بصرى وأذرعات من أعمال إمارة الغساسنة ... وفى عام ٦١٦م غلب الروم كليا، أى قبل الهجرة بست سنوات، فقدوا إمبراطوريتهم على أيدى الجيش الفارسى.

---

[1] طبقات ابن سعد ١/ ٢: ١٧.

وبعد ذلك بسنوات قلائل أخذت كفة الميزان تنقلب لصـــالح الـــروم رويدا رويدا، وأخذ هرقل يعد جيشه وبلاده لخوض معركة كبرى جديدة مـــع الفرس، فلم يأت عام ٦٣٤م، وهو عام معركة بدر إلا وقد هزم الفرس هزيمة منكرة، ثم اقتحم جيشه بلاد فارس حتى دخل المدائن واستنقذ الصليب الأعظم من أيدى الفرس، وعاد هرقل إلى بيت المقـدس ليحتفـل باسـتعادة جيشـه الصليب الأعظم احتفالا ضخما، وعلى طول الطريق من حمص إلـى بيـت المقدس كانت تبسط له البسط وتلقى عليها الرياحين ... وفى (إيلياء) لقيه أبو سفيان، وتحدث إليه القيصر عن الرسـول ورسـالته حديثـا طويـلا، رواه البخارى فى صحيحه، وكان هذا اللقاء بعد بدر أى فى عام ٣هـ - ٦٢٥م.

وكان للتحرشات البيزنطية على مشارف الشام فى أعقاب انتصـارات الروم على الفرس صدى بعيد المدى فى داخـل جزيـرة العـرب، وهـذه التحرشات ذاتها كانت السبب فى بعث رسول الله لجيش قوامه ثلاثـة آلاف مقاتل إلى مؤتة فى العام الثامن للهجرة، حيث دارت بيـن جيـش الرسـول والروم. معركة غير متكافئة لكثرة الروم وأحلافهم من العرب ويـروى أن عمرو بن العاص ذهب خلال العام الثامن إلى ذات السلاسـل فـى منطقـة قضاعة بالشام ليدعو هناك قبائل بلى وعذره لمحاربة الغساسنة والبيزنطين.

وعلى الرغم من الإشاعات التى راجت عن قـرب غـزو غسـانى بيزنطى مرتقب على المدينة، فإن رسول الله صلوات الله عليـه رأى فـى تعبئة قواته وحشدها على الجبهة الشامية عملا ذا أهميـة سياسـية قصـوى بالنسبة للمدينة ولجزيرة العرب كلها.

وقد أحدثت مسيرة رسول الله المظفرة إلى تبوك فى العـام التاسـع للهجرة (٦٣١م) ردود فعل مثيرة على الجبهة البيزنطية الغسـانية اسـتطاع رسول الله ﷺ أن يملى إرادته على الدويلات الصغيرة الواقعة فى طريقـه،

والتى كانت منحازة كل الانحياز للروم، وقد ظلت الجبهة البيزنطية الغسانية شغل رسول الله ﷺ الشاغل حتى أيامه الأخيرة. ومن ثم فقد أمر صلوات عليه قبل وفاته بقليل بتجهيز جيش إسلامى بقيادة أسامة بن زيد الذى قتل أبوه شهيدا فى غزوة مؤتة قبل ذلك بعامين وذلك من أجل الزحف على مشارف الشام.

ولكن البيزنطيون شديدى الاهتمام بما يجرى فى أرض العرب من أحداث لتأثيره البالغ على مصادر تجارتهم مع الشرق التى تخترق بعض طرقها بلاد العرب وكان التجار العرب، وهم فى أغلب الأمر القرشيون لأنهم أصحاب القوافل التجارية يحملون دائما أخبار رسول الله إلى الشام حيث الغساسنة وكانوا يكثرون التردد على أسواقها. وللقرشيين آنئذ، وهم ألد أعداء رسول الله ﷺ ، مصلحة خاصة فى تضخيم الأحداث، ليثيروا سخط البيزنطيين على رسول الله ﷺ[1].

وتزيد الحوادث حدة بإسلام فروة الجدامى أمير الروم على من يليهم من العرب وكانت عاصمته معا ولما علم الروم بإسلامه أخذوه وحبسوه ثم صلبوه.

وفى شهر رمضان من السنة العاشرة للهجرة (٦٣٢م) قدم على رسول الله ﷺ وفد من غسان قوامه ثلاث رجال، وأعلنوا دخولهم فى الإسلام ... بينما ظل الباقون على دينهم.

وهكذا كانت الأيام، يوما بعد يوم تحمل فى طياتها أسباب تأزم الموقف بين المدينة ودولة الغساسنة...

---

[1] راجع ص ٨٦ وما بعدها من كتاب نشأة الدولة الإسلامية للدكتور عون الشريف - دار الكتاب المصرى اللبنانى عام ١٩٨٠م.

ويزيد من أمر الغسانيين وموقفهم من الإسلام ومن رسول الله. ومن المدينة وضوحا وجلاء، قصة كعب بن مالك الخزرجي شاعر رسول الله صلوات الله وسلامه عليه.

ففي غزوة تبوك (٩هـ - ٦٣١م) تخلف عن الخروج مع رسول الله صلوات الله عليه، نفر من الصحابة، كان من بينهم كعب بن مالك..

- ٧ -

ونهى رسول الله صلوات الله عليه، بعد عودته إلى المدينة، الناس عن كلام كعب، وأمرهم بمقاطعته وشعر كعب بضيق شديد، فلزم بيته وفاضت عيناه بالدموع، وهو يرى الناس يتجنبونه ولا يكلمونه ... ويقول كعب : ثم غدوت إلى السوق فإذا نبطى من نبط الشام يسأل عنى وكان قد قدم بطعام يبيعه بالمدينة، فجاء فرفع إلى كتابا من ملك غسان يقول فيه:

"أما بعد فإنه بلغنا أن صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هوان، ولا مضيعة فالحق بنا نواسيك".

وقال كعب حين قرأ هذه الرسالة : هذا أيضا من البلاء ... ثم قصد إلى التنور فأحرقها فيه[1].

فاهتمام الغسانيين بأمر محمد وبالإسلام أمر قامت عليه البراهين والشواهد وتؤكد المصادر التى تفصح فى أحيان قليلة عن مؤامرات الغسانيين ضد الإسلام، وعن محاولاتهم الدائمة بذر بذور الشقاق فى صفوف أصحاب رسول الله ﷺ.

وهكذا عاشت المدينة فى أواخر أيام رسول الله صلوات الله عليه، على مناوشات مقطوعة بينها وبين الغساسنة، وعلى ترقب غزو غسانى لها.

---

[1] البخارى ٢/ ٢٦٦ وما بعدها من مختصر صحيح مسلم للمنذرى - تحقيق ناصر الألبانى.

ويؤيد الأمر وضوحا فى سوء نوايا الملك الغسانى نحو رسـول الله ونحو المسلمين، ونحو المدينة أن عمر بن الخطاب حين دخل المدينة، وعقب وفاة رسول الله صلوات وسلامه عليه ورأى ما عليه الناس من الاضطراب والجزع، ولم يكن يتصور وفاة رسول الله ﷺ ، بادر يسأل الناس أوقد جاءت غسان؟

ومعنى ذلك أن المدينة كانت تعيش آنذاك على احتمال وقوع غزو غسانى لها وهكذا كانت غسان، وكانت دولة الغساسنة غريبة وعجيبة فى حياة الإسلام الأولى فى المدينة، فى ظلال رسول الله ﷺ.

إنها كانت مركزا للمؤامرات ضد رسول الله ﷺ ، وكانت مهاجرا لشرازم الفارين من الإسلام ومن سماحة رسول الله ﷺ، وكانت على استعداد دائم لغزو المدينة.

ولم تلبث الأيام إلا قليلا حتى فتحت بلاد الشام كلها فى عهد الخليفة الثانى عمر بن الخطاب ودخلت مملكة غسان فى الإسلام وقدم ملكها جبلة ابن الإيهم المدينة ، وعاش فيها شهورا قلائل ثم هرب منها بليل إلى الشام ليلحق بالغسانيين، واستدعاه قيصر من عاصمة الغساسنة، فذهب إليه، وعاش فى بيزنطة ذليلا مهانا بعد أن أرتد إلى النصرانية، وخلع مواثيقه وعهوده لخليفة المسلمين عمر ابن الخطاب، ﷺ ومات فى بيزنطة دون أن يحزن أحد لموته، أو يجزع إنسان لوفاته،.

وانتصرت كلمة الإسلام وذهبت إلى الأبد أسطورة غسان وأسطورة الدولة البيزنطية التى لا تهزم "وارتفعت راية الإسلام فى كل مكان حيث استظل الناس بظلها إلى الأبد.

مصادر البحث

- صحيح الإمام البخارى.
- صحيح الإمام مسلم.
- سيرة ابن هشام.
- الروض الأنف للسهيلى.
- تاريخ الطبرى.
- تاريخ ابن الأسير.
- مروج الذهب للمسعودى.
- تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد على.
- تاريخ العرب عصر ما قبل الإسلام لمبروك نافع.
- نشأة الدولة الإسلامية – د. عون الشرف.
- الشفاء للقاضى عياض.
- مشاهد من السيرة العطرة. – خفاجى.
- السيرة النبوية الخالدة – لخفاجى.
- سيرة – رسول الله – لخفاجى.
- وغيرها من المصادرة.

الأدب العربى .. أدب القرآن
أدب عالمى

- ١ -

يرى لفيف من الأدباء أن عالمية الأدب أن يكون مقـــروءاً بلغـات عديدة، وأن يستفيد من قراءة هذا الأدب، أى أدب، ملايين البشر: وقريب من ذلك ما فسر به أحمد أمين فى كتابه "النقد الأدبى" ص ٢١٤ مـــن الجـزء الأول" عالمية الأدب بأن يكون مفيداً وممتعاً لكل الناس فى كل الأزمان.

وكان جوته الشاعر الألمانى الكبير يدعو إلى أدب عالمى، ويشـــرح معنى هذا الأدب العالمى الذى يدعو إليه بأن يطمح أن تتواجد الآداب العالمية فى أصولها الفنية، وأجناسها الأدبية، وغاياتها الإنسانية[1] بمعنى خروج كـل أدب عن نطاقه القومى للبحث فى الآداب الأجنبية عما يفيده، ويجب اقتباســه منها، ليغذى به بناءه وأفكاره وليتعاون مع الآداب الأخرى تعاونا فكريا وفنيا فعالا لأن عالمية الأدب بهذا المعنى الذى شرحه جوته تحقق وحـــدة الآداب العالمية فى جميع أجناسها الأدبية وفى أصولها وغاياتها: ولكن ذلك قد يبـدو غريب الطابع وغير قريـــب الحـدوث، لأن لكـل أدب جوانبـه الذاتيـة، وخصائصه الفكرية والتعبيرية التى يصعب معها التوحد فى آداب أمم أخـرى ... وبهذا المعنى ظهرت عالمية الأدب واضحة حين تـأثر الأدب اللاتينـى بالأدب الإغريقى؛ ثم حين تأثرت الآداب الأوروبية فى بدء عصر النهضـــة بالآداب والإغريقية واللاتينية معاً؛ كما ظهرت كذلك واضحة حيـــن أخـذ

---

[1] الأدب المقارن، ١٣/٢ لخفاجى.

الأدب العربي في عصر ازدهاره خلال العصر العباسي من الآداب العالمية، ثم حين أخذ كذلك في بدء عصر النهضة الحديثة من الآداب الأوروبية، بمختلف وسائل الأخذ وشتى أدواته.

وعندما ظهرت طبعة جديدة كاملة لآثار جوته في حياته أخذ (سكرتيره) الأدبي "أكرمان" يهنئه ويقول له: "إن كثيرا من الإيحاءات اليونانية والإنجليزية والفرنسية والإيطالية، واحتواها هذا السفر الكبير بأجزائه الجديدة الضخمة، والجميع موقع بتوقيع جوته "ولكنه أغفل ذكر الإيحاءات العربية الإسلامية في أدب جوته أيضا.

- ٢ -

ولقد كان الأدب العربي، وهو أدب القرآن الكريم أكثر الآداب ثراءاً، وأوفرها جدة، وأعظمها شمولا وابتداعاً وابتكاراً على طول عصور التاريخ ومنه أخذت الآداب العالمية، في مختلف العصور، ومنذ الكثير من الأجيال والقرون.

أخذ منه الأدب الفارسي، وظهر ذلك جليا في اقتباسه من الأدب العربي بعض أجناسه الأدبية النثرية كالتاريخ أو من المقامة الذى انتقل تأثيره العربي إلى الأدب الفارسي فظهرت مقامات حميد الدين البلخي (٥٥٩هـ) متأثرة بمقامات البديع والحريري، وكذلك أدب الحكمة والسلوك وسير الملوك، وفن القصة على لسان الحيوان، وغير ذلك من أجناس أدبية عديدة حدث فيها بين الأدبيين وجوه من التأثر والتأثير وكذلك ظهرت المحسنات البديعية بمختلف ألوانها في النثر الفارسي، وصحب ذلك كثرة الاستشهاد بالقرآن والحديث والحكم والأمثال مما احتذى فيه الأدب الفارسي الأدب العربي؛ وقلد الأدب الفارسي الأدب العربي كذلك في الوقوف على الأطلال والبكاء عليها. وسارت القصيدة الغنائية العربية وزنا وقافية وتعدد أغراض.

وأفكار وأخيلة وبعض المعانى. ولا ننسى أن اللغة العربية والأدب العربـــى كانا هما اللغة القومية والأدب القومى للفرس نحو ثلاثة قرون بعد الإســـلام، حتى ظهرت الفارسية، وعادت تزاحم العربية، ويكتب بها الأدبـــاء الفــرس آدابهم بتشجيع من ملوكهم ودولهم.

وقد قلد الفرس شعراء العرب فى كثير من الموضوعات، كما قلـــدوا بحور الشعر العربى وبخاصة القصيرة.

وفى المعانى الشعرية نجد الكثير من معانى شعراء الفرس يرجع إلى معانى الشعراء العرب فهذا حافظ الشيرازى (٧٩١هـ) يقول فى وصـــف الهلال:

رأيـــت مـــزرعة الفـــلك الخضــراء

ورأيت الهلال وهو كمنجل فى السماء يبدو

وهو ولا شك يستمد ذلك من قول ابن المعتز (٢٩٦هـ) فى وصف الهلال:

كمنجـــل قـــد صيـــغ من فضـــة

يحصد من زهـــر الدجى نرجســا

وابن المعتز فى قمة الصورة الشعرية يملك ناصيتها ويجيـــد رســم ألوانها، ويأتى الشيرازى مقصرا وانيا متخاذلا، وقد شبه فيكتور هوجو بعـــد أجيال من ابن المعتز الهلال بمنجل من ذهب فلم يصنع شيئاً، وأتى بالصورة مختلفة، وأين هذا وذاك من قول ابن المعتز الرفيع؟.

ويأتى الشاعر الفارسى منوجهرى فى القرن الخامس الهجرى فيفخـر فى أكثر من موضع فى ديوانه بأنه قرأ دواوين الشعراء العرب وأخذ منــها، فيقول لأحد الشعراء من معارضيه: وأنا أحمل على صـــدرى كثـيرا مــن دواوين العرب.

وأنت لا تستطيع قراءة "بصحنك فأصبحينا" ويقول لأحد ممدوحيه:

لقد أعطاني الله في نظم قصائدك

قلب بشار، وطبع ابن مقبل

ونقرأ هذا المعنى الشعري الذي أخذه منوجهري من أبي نواس الشاعر العباسي (_١٩٨هـ) يقول أبو نواس:

وإذا بنو العباس عد حصاهمو

فمحمد يا قوتها المستخلص

فيأخذ منوجهري هذا المعنى الرائع ويقول في شعره في المدح "... وكأن العظماء قلادة خرز، وأنت ياقوتة وسط هذا الخرز".

ويقول الشاعر الفارسي رشيد الدين الوطواط لم يجد الشاعر الفارسي أمامه ما يقلده من نماذج الأشعار إلا الأشعار العربية، التي أخذ يحاكيها في أسلوبها وسبكها". ويقول شرف الدين رامي الفارسي في كتابه "أنيس العشاق": "استعمل الفرس عبارات العرب، ومدوا إليها يد السلب، ويبدو ذلك للعيان من مطالعة أمهات الدواوين العربية".

كما يقول: "لم يمد أهل العرب أنيابهم إلى الألفاظ الفارسية، ولكن شعراء العجم مدوا أنيابهم إلى الألفاظ العربية، وتصرفوا في تشبيهاتهم".

إن تأثير الأدب العربي في الفارسي ضخم، وقد إتضح في الشعر الفارسي منذ القرن الثالث الهجري، كما في شعر الدقيقي والفردوس مثلا، وظهر هذا التأثير في النثر الفارسي منذ القرن الخامس الهجري. وقد ترجمت أمهات كتب الدين واللغة والأدب إلى الفارسية على مرور الأجيال.

وقد استمد الأدب التركي كذلك من الأدب العربي، ومن الأدب الفارسي المتأثر بالأدب العربي.

وكذلك أخذ الأدب العبرى من الأدب العربى الكثير من المعانى والأخيلة، والصور والأوزان والأغراض والجوانب الفنية، وأثر فن المقامة العربى فى الأدب العبرى تأثيراً كبيراً، ولقد قام أحد اليهود الربانيين، واسمه "شلومو الحريزى" بترجمة مقامات الحريرى إلى العبرية ثم ما لبث أن نهج منهجها، وسار على منوالها بالعبرية، فألف خمسين مقامة، سماها "سفر محكومى" أى كتاب الحكمة.

وهذا التأثير الكبير للأدب العربى فى مختلف الآداب القديمة كثير وضخم؛ والبحث عن صوره وألوانه وجوانبه يحتاج إلى جهد طويل وقد ألمحت بجوانب كثيرة ضخمة من هذا التأثير فى كتابى "الأدب المقارن" بجزئيه.

- ٣ -

ومنذ امتداد النفوذ العربى الإسلامى إلى أوروبا، وانتشار الثقافة الإسلامية والحضارة العربية فى ربوع الغرب، عن طريق الأندلس وصقلية والحروب الصليبية، والتجار الذين انتقلوا من الشرق إلى الغرب أو من الغرب إلى الشرق؛ ظهر تأثير الأدب العربى فى شتى جوانب الآداب الأوروبية قبل وبعد عصر النهضة...

فأقتبس الأوروبيون نظام القافية من الشعر العربى وأخذ شعراء التروبادور ينقلون كل السمات الفنية الغنائية للشعر العربى والموشحات إلى أشعار لغاتهم، فانتشر الشعر التروبادورى أولا فى أسبانيا، ثم جنوب فرنسا وإيطاليا ثم عم أوروبا الغربية والوسطى، وهذا الشعر من الأسس الكبيرة التى بنى عليها الشعر الأوروبى الحديث، وكان طابع هذا الشعر الموروث عن شعر التروبادور هو الطابع العربى فى النسيب من هوى مبرح، وحنين إلى محبوبه، وبكاء على الأطلال، ووقوف بالديار، وسوى ذلك.

وكان للقصة العربية، وألف ليلة وليلة بخاصة، أثر ضخم فى جميع الآداب العالمية، وفى الكثير من الأعمال الأدبية الكبرى؛ مثل "قصص الأيام العشرة" للكاتب الإيطالى بوكاتبو، واقتفى شوستر أبو الشعر الإنجليزى أثر بوكاتبو فى ذلك، فكتب "قصص كانتربورى".

وسوف نلم بالتأثيرات الإسلامية فى الكوميديا الإلهية لدانتى بعد قليل[١].

وقد ذاع كتاب "كليلة ودمنة" فى إيطاليا فى بلاط فردريك النورماندى الذى كان البابا يشكو منه لإقباله على الثقافة العربية الإسلامية إقبالا شديدا.

وقد أوجد كتاب "كليلة ودمنة" فى الآداب الأوروبية هذا اللون الوعظى الرمزى من أدب الحكمة والسلوك.

وترجمت قصة "حى بن يقظان" إلى كثير من اللغات الأوروبية والشرقية أيضا. وجاء الكاتب الإنجليزى "دانيال دى فو" فكتب على غرارها قصته المشهورة "روبنسن كروزو".

وروح اللغة العربية هى التى أمدت المعجم اللغوى الأسبانى بما ينيف على ربع مفرداته، وما فتئت أضواء الأدب العربى تلهب أخيلة أدباء الأسبان منذ قرون طوال، مما ترى أثره فى مجازفات "دون كيشوت" وأشباهه من الأبطال الفرسان.

وجل الأدب الروائى الأسبانى متأثر بروح عربية محضة، وبعض مواقف البطولة فى قصيدة السيد مأخوذ من مواقف واردة فى مقامات الحريرى، والمقاطيع المشهورة لجورج ما تريكه ترجمة أسبانية لمدائح الشاعر أبى البقاء وأكثر القصائد فى كتب الأغانى الأسبانية لمختلف الشعراء

---

(١) يقول فولتير : أنه لم يبدأ فى كتابة القصة إلا بعد أن قرأ "ألف ليلة وليلة – أربع عشرة مرة، وما من قصاص أوروبى إلا وقرأ "ألف ليلة" مرارا عديدة.

ليست سوى انتحال للقصائد العربية. والشاعر الأسبانى "غونغورا" هو أشبه الشعراء الأسبان بكبار الشعراء الأندلسيين ونفوذ الأدب العربى ظاهر وواضح فى كتابات الكتاب والشعراء الأسبان المشهورين؛ والشبه بين البطلين : فى مقامات بديع الزمان، وفى دون كيشوت، وهى أول رواية أوروبية، واضح جلى.

وتأثير أدب الرحلات العربى فى مختلف الآداب الأوروبية أكثر وضوحا وجلاء.

وتأثير الأوزان والقوافى الشعرية العربية فى الأشعار الأوروبية لا تخفى على أحد، يقول نيكلسون فى كتابه "تاريخ آداب العرب": "إن الشعر الأوروبى كان قبل اتصال الأوروبيين بالعرب شعرا ساذجا لا قافية له، فلما اتصلوا بعرب الأندلس ظهرت فيه القافية" ويقول المستشرق "ماليل":

"إن أوزان الشعر الشعبى القديم فى إيطاليا، كما فى أناشيد جاكوبونى وفى أغانى المرافع لا تختلف عن أوزان الشعر العربى الأندلسى".

ويقول المؤرخ الإيطالى كيتانى صاحب كتاب "حوليات الإسلام": "إن الذى كان لدانتى الشاعر الإيطالى من واسع الخيال، وجمال التصوير فى شعره، ليس إلا أثرا لما كان فى قرطبة وبغداد من أدب زاهر أيامه كانت أوروبا تخبط فى جهالتها". ويقول لويس فياردو فى كتابه "تاريخ العرب والبربر فى أسبانيا": "كان الشعر الفرنسى على مثال الشعر الأسبانى المأخوذ عن الشعر العربى لا عن الشعر اليونانى، ولا عن الشعر الرومانى، لأنهم لم يقفوا على هذا ولا ذاك قبل القرن الرابع عشر الميلادى (الثامن الهجرى) حتى يقلدوه، ولقد أخذنا صناعة الشعر والقوافى عن العرب، وهذه الصناعة جاءتنا من الأندلس".

ويقول المؤرخ الأسبانى كوند: "لا شك أن الأسبان مدينون للعرب بلغتهم وآدابهم"؛ ويقول أحد كتابنا وهو الطيباوى "فى كتابه التصوف الإسلامى" ص ١٢٣: "إن معظم ما جاء به دانتى كان قد ألفه ابن العربى، وهذا الشبه لم يقف هنا عند جانب، بل هو شامل للصور والأمثال والاصطلاحات حتى الأساليب الفنية، ودانتى نفسه يؤكد أن الشعر الإيطالى لم يولد فى إيطاليا، بل فى جزيرة صقلية التى عاش فيها العرب زمنا طويلا.

- ٤ -

وهنا لا ننسى حديث الكوميديا الإلهية لدانتى (١٢٦٥ - ١٣٢١م).

وفى بحث المستشرق الأسبانى بلاسيوس الذى ألقاه فى حفل استقباله فى المجمع الأسبانى عن "أثر عقيدة البعث والآخرة عند المسلمين فى ملحمة دانتى "الكوميديا الإلهية" يتضح بجلاء أن دانتى متأثر كل التأثر بقصة المعراج الإسلامية فى ملحمته[٣].

وفى عام ١٩٥٢م نشر المستشرق الإيطالى جبرييلى بحثا عن دانتى وصلته بالثقافة الإسلامية فأكد ما أكده بلاسيوس من قبل.

وفى هذه الأثناء أو عام ١٩٤٩ على وجه التحديد كان المستشرق الإيطالى "تشيرولى" قد نشر كتابا بعنوان "كتاب المعراج" ومسألة المصادر العربية للكوميديا الإلهية". وقد أكد فى هذا الكتاب أن ترجمة قصة المعراج الإسلامى كانت متداولة فى القرن الثالث عشر الميلادى، وكان لها تأثير فى أوساط الأدباء، وكان دانتى بحكم كونه من كبار المثقفين فى عصره مطلعا على هذه القصة.

وتأتى الكوميديا الإلهية فى صياغتها الغنية لتقطع بشكل لا يبقى معه مجال للشك بصلة هذا الأثر الأدبى الإيطالى بقصة الإسراء والمعراج

---

[٣] ونشر بلاسيوس عام ١٩٢١ كتابا عن ذلك الموضوع بعنوان - *الأصول الإسلامية فى الكوميديا الإلهية*.

الإسلامية فى تصميمها للعالم الآخر، وفى كثير من مشاهدها وصورها للعالم الأخروى فى الفردوس والجحيم. وقد كتب ابن عربى (٥٦٠ – ٦٣٨هـ) قصة المعراج فى كتابه "الفتوحات المكية" فى صورة رائعة رفيعة كانت هى النموذج الفنى الذى تأثر به دانتى.

وعلى هذا النمط سار المستشرق الأسبانى مونيو سنديو.

– ٥ –

وفى الأدب الإنجليزى نجد قصة الشاعر عبيد بن الأبرص – الذى رأى فى المنام حلما فأصبح وإذا هو شاعر – واضحة فى قصة الراهب "كادمون" فى الأدب الإنكليزى، فقد رأى هذا الراهب فى منامه طيفا يأمره أن يقول الشعر فاعتذر، وكرر الطيف الطلب، وأمره أن يقول الشعر فى الله والخليقة، ولما أصبح كادمون وجد نفسه قد صار شاعرا.

وفى قصص كانتربرى التى كتبها تشوسر أبو الشعر الإنكليزى تجد الحديث عن الزباء.

وفى عطيل الشكسبير ترى صورة واضحة غير مسماة لبطل عربى. وفى تمثيلية "ماكبث" ترى صورة زرقاء اليمامة واضحة.

وقد أشار ملتون فى ملحمته "الفردوس المفقود" إلى الجزيرة العربية كأنها منبت العطور ومواطن الروائح الزكية.

وفى قصة "ابنة الجراح" لسكوت تنطلق الصور والروح والمؤثرات العربية الإسلامية.

وللشاعر شلى قصيدة عنوانها "تقليد من العربية" عالج فيها سيرة عنترة.

وفى قصيدة تنسون "إيوان لكسلى" نجده يقلد فيها شعراء المعلقات تقليدا شديدا واضحا، وكان قد قرأ ما كتبه المستشرق الإنجليزى "وليم جونز" من تراجم لقصائد المعلقات فوقف تنسون على الأطلال وبكى خلانه

وأصحابه وأيامه الخوالي الخوالد، التي قضاها في الوصل والسعادة، والتزم تنسون قافية واحدة في كل بيتين متتاليين على نسق الشعر العربي.

وكان المستشرق جونز قد دعا الشعراء الإنجليز إلى تجديد صور القصيدة الإنجليزية وأخيلتها وموضوعاتها ومناهجها بالاقتباس من روح المعلقات والقصائد العربية، فتأثر تنسون فيمن تأثروا بدعوته.

وممن تأثروا بدعوة "جونز" الشاعر وبروت، سوزى شاعر البلاط في إنكلترا في القرن التاسع عشر، فنظم شعره وهو يحمل تأثيرا عربيا قويا، مثل قصيدته "ثعلبه الفتاك" ذات الخيال المحلق، والأوصاف العربية الخالصة، ووصف فيها سعى أحد الأعراب من الشباب في الأخذ بثأر أبيه.

وما تزال الموضوعات العربية تطبع الأدب الإنكليزى بطابع جديد خصب حتى اليوم بفضل ترجمات آربرى وغيره من المستشرقين الإنجليز لمختارات رفيعة من الأدب العربي، مما أضفى على الأدب الإنجليزى أثرا لا يقل ضخامة عن أثر الآداب العالمية الأخرى فيه وتأثيرات الأدب الإسلامى في أدب جوتة الألماني واضحة كل الوضوح في الديوان الشرقي الذى قال فيه:

"إذا كان الإسلام معناه التسليم لله"
"فإننا أجمعين نحيا ونموت مسلمين.."

- ٦ -

وهنا نقول: إن الأدب العربى كان هو الأدب العالمى الرفيع، الذى يتمثله ويحاكيه ويقتبس منه الأدباء من كل لون وجنس وشعب منذ ظهور الإسلام حتى اليوم، لأن الإسلام وكتابه الحكيم نقلا الأدب العربى من أدب جاهلى محدود الطابع، إلى أدب إنسانى متجدد النزعة، شريف الغرض، موصول الهدف بأسمى الغايات الفكرية التى يتطلع إليها كل مثقف طموح موهوب.

وأدبنا العربى الذى أثر فى كل آداب العالم منذ ظهور الإسلام حتى اليوم، هو أدب عالمى بكل ما تحمله هذه الكلمة من معان.

والأدب العالمى دائما تكسبه الأمة التى يظهر فيها خصائص تفكيرها وموهبتها الابتداعية وهو لا يكسب مكانته العالمية إلا إذا كان لهذه الأمة السيادة والنفوذ بين الأمم والحضارات والثقافات.

وكذلك كان الشأن قديما للأدب العربى حمله المسلمون معهم إلى مشارق الأرض ومغاربها، واستظل بنفوذ الإسلام وسيادته وحضارته زمنا طويلا.

وظل يؤثر فى مختلف مجالات الحياة أقوى التأثيرات وأضخمها.

وعندما فقدت الأمة الإسلامية العربية سيادتها وفقدت الحضارة والثقافة الإسلامية بعض منزلتها العالمية، اعترى أدبنا العربى هزة شديدة ولكنه بقى يحمل أعظم خصائصه الإبداعية حتى اليوم، ومن العجيب أن يأخذ شبابنا فى التأثر بالنزاعات الأدبية - الغربية - المعاصرة وفى الانصراف عن تراثهم الأدبى القديم بما يحمل من مواريث وسمات ونزعات ومذاهب ومناهج فنية أصيلة يوليها المستشرقون أشد عنايتهم حتى اليوم فى دراساتهم وبحوثهم عن كل جوانب أدبنا العربى القديم.

إن الأدب العربى، مع فقدان الأمة العربية لمكانتها الكبيرة فى العالم؛ كأمة موجهة للحضارة الإنسانية، وذات أثر فعال فى تطورها، ولا يزال يملك كل مقومات أصالته وجدته وعظمته، وعالميته كذلك.

ولا يزال العرب يملكون كذلك بتراثهم وبدينهم وبكتابهم الحكيم القرآن الكريم أعظم المواريث الروحية والفكرية والأدبية التى تستطيع التأثير فى الحياة فى كل مجالات الإبداع والنهضة والتطور والحضارة.

ونحن نقول: إن الأدب العربى هو أدب عالمى بكل مدلول فنى لهذه الكلمة، وهو أدب متجدد مبدع فعال مؤثر فى الحياة، وهو أدب مستعد لحمل الأمانة التى حملها أجيالا طوالا وخدم بها العالم والإنسانية منذ قرون مديدة.

إنه أدب عالمى، لأنه أدب الإسلام، وأدب القرآن أولا وأخيرا.

ثورة الشعب المصرى عام ١٩١٩

- ١ -

ثورة ١٩١٩ هذه الثورة الخالدة التى رفعت الأمة فيها صوتها بقيادة الزعيم الوطنى الأزهرى الثائر سعد زغلول مطالبة إنهاء الاحتلال البريطانى لمصر.

وكان سعد زعيما وطنيا مخلصا، حطم كبرياء الأسد البريطانى سيد العالم آنذاك.

واشترك الشعب كله فى الثورة ضد الاحتلال مطالبا بالاستقلال وجلاء الجيش البريطانى عن مصر وكان الأزهر مركز الثورة وقلبها النابض، ومن فوق منبره يعلن الشعب قراراته، وحمل علماؤه وطلابه عبء الإصرار على النضال من أجل الإسلام والعروبة والوطن، فكان منبر الأزهر هو روح الثورة وقلبها الخفاق.

قطعت قضبان السلك الحديدية، أضرب الموظفون على العمل، ومن عجب بأن تعلن بعض المدن قيام حكومات وطنية فيها لا تخضع لسلطات الاحتلال.

وأذكر وأنا طفل كيف كانت المظاهرات مستمرة فى القرية، هتاف بحياة الوطن والحرية وسعد وكيف كان الفلاحون يقفون فى عرض الطريق فإذا وجدوا سيارة فيها إنجليزى أو أجنبى أجبروه على النزول والهتاف معهم بحياة مصر وحرية الوطن.

وها هى ذى زفتى تعلن الجمهورية وإمبراطورية زفتى بقيادة الطالب الشاب يوسف أحمد الجندى (فـــبراير ١٨٩٣ - أكتوبـــر ١٩٤٧) الطـــالب بالمعلمين العليا والحقوق الخديوية وكان له نشاطه الوطنى البارز فى صفوف طلاب المدارس العليا.

وما أن أعلنت الحماية على مصر، ومنع الإنجليز عـــودة الخديـــوى عباس حلمى الثانى من الآستانة إلى مصر عام ١٩١٤، حتى ثـــار الشـــعب المصرى وقام الطلاب فى القاهرة بمظاهرات ضخمة، وفى مقدمة صفوفـــهم يوسف أحمد الجندى ... واستمر الشعب فى غليانه حتى كانت ثورة ١٩١٩، ونفى الإنجليز قائدها سعدا إلى جزيرة مالطة لأنه طالب بجلاء الإنجليز عن مصر وبحرية مصر وتحررها من الاستعمار البريطـــانى الرابـــض علـــى صدرها.

وكان ما كان من إعـــلان يوســـف الجنـــدى إمبراطوريـــة زفتـــى والجمهورية الشعبية فيها.

وجن جنون الاستعمار، فأرسل المندوب السامى البريطانى فى مصر قوة استرالية إلى زفتى للقبض على زعماء الثورة فيها وفى مقدمتهم يوســـف الجندى؛ ودخلت القوة الاسترالية زفتى وبحثت عن الجندى فى كـــل مكـــان لاعتقاله، فكان أن اختفى لدى أسرة زمزم فى قرية (حنون)، ومنها هرب إلى القاهرة، حيث اختفى فى مسكن صديقه محمد فريد أبو حديد، وبعد الإفـــراج عن سعد وعودته من مالطة ظهر يوسف الجندى ليواصل نشاطه من جديـــد فى القاهرة.

ومرت الأيام، وعين الجندى وكيلا برلمانيا لوزارة الداخليـــة عـــام ١٩٣٦ فى وزارة النحاس باشا.

إمبراطورية زفتى، يا لهذا العجب العجاب من ذكريات خالدات.

مدينة صغيرة تعلن خلال الثورة الجمهورية وإمبراطورية زفتى العظمى[1].

-٣-

لقد كان سعد زغلول زعيم ثورة ١٩١٩، والأزهرى النابه شخصية كبيرة قاد وطنه إلى النضال والحرية.

تولى سعد وزارة المعارف - التعليم - فحطم ما صنعه (دنلوب) الإنجليزى فيها ... وتولى وزارة الحقانية - العدل - كما تولى وكالة الجمعية التشريعية - مجلس الشعب - ومارس المحاماة .

وخرج هو ورفيقاه - عبد العزيز فهمى باشا ومحمد شعراوى باشا يطالب برفع الحماية عن مصر وإنهاء الاحتلال الإنجليزى لأراضيها ونفاه جيش الاحتلال مرارا. وقامت الثورة بعد نفيه الأول إلى مالطة.

وأفزع صوت سعد القصر والإنجليز معا، وعجب الناس لهذا المناضل الثائر الذى قاوم جيش الاحتلال والإمبراطورية العظمى بخطبه وكلامه، وقال غاندى زعيم الهند: اعتبرونى تلميذا فى مدرسة الزعيم العظيم سعد زغلول.

- ٤ -

وخلال ثورة ١٩١٩ أعلن الوطنى المصرى "حافظ دنيا" فى فارسكور قيام مملكة فارسكور ونصب نفسه ملكا عليها.

---

[1] راجع مقال فى جريدة الوفد - عباس الطرابيلى "مقال بقلم لمعى المطيعى فى جريدة الوفد عن محمد فريد أبو حديد بتاريخ ٢٠٠٠/١١/٢٣ (استند فيه إلى مراجع منها (حياتى لأحمد أمين - المجتمعيون فى ٥٠ عاما لمهدى علام).

وبعث هذا المناضل إنذارا إلى المسئول الأول فى دمياط حين اعتقل ثمانين من ثوار فارسكور بقطع المياه عن المدينة إذا لم يتم الإفراج عن المعتقلين.

وأرسل الاحتلال قواته إلى المدينة الثائرة، فدخلت المدينة، وقبضت على "حافظ دنيا" ملك فارسكور واضطرت أمام ثورة الأهالى إلى الإفراج عنه وعاش شريفا مكرما.

وقد كرم سعد هذا الثائر الوطنى فى عهد وزارته الأولى عام ١٩٢٤. وظل مرفوع الرأس حتى لقى أجله فى ٥ يونيو ١٩٤٠.

النقد بين المحلية والعالمية

كتب المحرر الأدبى للأهرام محمد هزاع (عدد ١٩٩٠/٥/٥) المقال التالى:

أوصت شعبة الآداب بالمجالس القومية المتخصصة بإنشاء معهد للنقد تكون فيه أقسام لنقد الشعر ونقد القصة ونقد المسرحية والمقالة والنقد العلمى كما أوصت بإنشاء مجلة نقدية جديدة تشرف عليها هيئة محايدة من النقاد ولا تخضع إلا لحكم الذوق الأدبى وحده .. واستبدال مجلة (فصول) بمجلة جديدة محايدة للنقد والتراث. وتضمنت التوصيات: أن تكف مدرسة النقاد من الشباب الأغراب عن النقل الأوروبى بوعى وبدون وعى وأن نرجع إلى نقدنا القديم ونخرجه فى صورة محققة جديدة ودراسة تيارات النقد العربى القديمة فى جميع كليات الآداب واللغة على ضوء الكشوف العلمية المعاصرة ووضع مناهج مفصلة للنقد والبلاغة تسير عليها المناهج الدراسية فى مدارسنا ومعاهدنا. وكانت شعبة الآداب بالمجالس القومية المتخصصة التى يشرف عليها د. محمد عبد القادر حاتم قد ناقشت تقريرا عن النقد الأدبى بين المحلية والعالمية كتبه الدكتور محمد عبد المنعم خفاجى جاء فيه:

نقدنا المعاصرون يحتلون منزلة رفيعة فى الفكر الأدبى الحديث... والأدب العربى يعتز بكوكبة منهم تسنموا ذروة المجد الأدبى فى عصرنا ومن بينهم العقاد وطه حسين ومحمد مندور ورشاد رشدى ومصطفى السحرتى وأحمد الشايب ود. عبد العزيز شرف وسواهم... والنقد المعاصر يجمع بين الأصالة والمعاصرة وبين التراث والحداثة وللأسف يرجح جانب

الحداثة بعض شباب النقاد الذين لم يقرأوا تراثنا العربى القديم ولم يقفوا على تياراته ومذاهبه ...

النقد العربى القديم متعدد النظريات والتيارات فهناك نقد للمضمون ونقد للشكل ... ونقد للمعنى ونقد للفظ وهناك نقدا يتكئ على مذهب البديع وآخر يرجع إلى عمود الشعر وآخر يعتد بالنظم ...

الأصمعى .. وضع فى النقد مقياسا لفحولة الشعراء.

وابن سلام ... وضع أساسا لطبقات الشعراء.

والجاحظ ... نظر إلى اللفظ والمعنى ووضع الأساس لنظرية الأسلوب.

وابن المعتز ... وضع أساسا لنظرية البديع فى النقد العربة.

وقدامة ... وضع أساسا للمنهج الموضوعى فى النقد العربى ... وابن طباطبا وضع أساس منهج النقد التأثرى وطبق ذلك المنهج ... والقاضى الجرجانى صاحب كتاب الوساطة يجعل الذوق الأدبى هو الحكم فى جميع مشكلات النقد والبيان ويرد إلى عمود الشعر كل ما اختلف فيه النقاد من مسائل النقد ومشكلاته...

والآمدى ... صاحب كتاب الموازنة يضع نظرية عمود الشعر فى النقد ويطبقها تطبيقا باهرا ... وعبد القاهر الجرجانى وضع نظرية النظم وتطبيقاتها عليها نالت الإعجاب ... وترشدنا بحوث عبد القاهر الجرجانى فى كتابه أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز إلى حقائق كثيرة فى النقد والبلاغة من أهمها:

١- نظرية النظم أو العلاقات الأسلوبية بين الألفاظ أو نظرية التحليل اللغوى.

٢- بيان مدى قيمة عنصر المعنى فى النص الأدبى.

٣- أهمية اللفظ فى العمل الأدبى.

٤- أهمية المعانى الثانوية فى الأسلوب.

٥- بحث مقدمات قضية الإعجاز القرآنى.

٦- الكشف عن أن اللفظ رمز لمعناه.

٧- لا فصل بين الألفاظ ومعناها ولا بين الصورة والمحتوى.

٨- الالتفات إلى بلاغة الصورة فضلا عن بلاغة اللفظ.

٩- الاهتمام بالجملة المركبة وبلاغتها ومن ثم كان بحث الوصل وبالفصل الذى ابتكره عبد القاهر وأجاد فيه.

١٠- نظرية بناء الاستعارة على التشبيه وقرب الشبه فى الاستعارة.

١١- الاعتماد على الذوق فى مختلف الأحكام النقدية مما جعل عبد القاهر من أئمة النقد التأثرى

وإذا كانت مذاهب النقد والأدب قد تعددت من كلاسيكية ورومانسية ورمزية وسيريالية وواقعية وإنسانية ووجودية ... وجماعية نقد الوعى التى قامت فى فرنسا باتجاه سريالى محض فإن أشهر تيارات النقد المعاصر يمكن تلخيصها فيما يلى:

١- الاتجاه الألسنى اللغوى الذى يستحضر إنجازات علم اللغة ونظرته إلى الأدب وتختلف فروع هذا الاتجاه وتتكاثر بعدد النقاد أو الباحثين ويمكن أن تصل إلى درجة من التناقض.

٢- الاتجاه الدلالى الذى يحاول أن يجد منهجا ثابتا لمعرفة المعنى.

٣- الاتجاه البنيوى الذى نادى فى فرنسا شتراوس وهو مجموعة شديدة التنوع من المذاهب المتناقضة أحيانا تشمل وجودية سارتر وعلمانية باشرل الزائفة واللغويات المعاصرة المستمدة أصلا من سويسرا إضافة إلى الماركسية أحيانا وكلها تميل إلى الابتعاد عن قضية النقد الأساسية وهى تحليل العمل الفنى المتكامل وتقويمه ...

٤- تيار الحداثة فى النقد والأدب وينطلق من مفهوم علمانى خالص.

٥- التيار الأسلوبى الذى يحاول رصد أسلوب الكاتب وفى ظل علم اللغة مستعينا بالمنهج الإعلامى.

وقد بدأت نظرية الأسلوبية فى النقد الأدبى مع مطلع القرن العشـوين على يدى "سوسير" وتلميذه "بالى" وجاء "ماروزو" الذى عبر منذ عام ١٩٤١ عن أزمة الدراسات الأسلوبية ونادى بحق الأسلوبية فى الاعتبار بين مذاهـب النقد وفى عام ١٩٦٠ عقدت ندوة عالمية بجامعة أنديانـــا كـــان محورهـــا الأسلوب ... وفى عام ١٩٦٩ أعلن أولمان الألمانى استقرار الأسلوبية علمـــا ألسنيا نقديا ...

والأسلوبية وصف للنص الأدبى حسب طريقة مستقاه من الألسنية أو هى دراسة اللأسلوب كل المنطوقات اللغوية أو فى ظـــل الأعمـــال الأدبيـــة الإبداعية وتنادى الأسلوبية بأن الفصل بين لغة الأثر الأدبى ومضمونه مـــن شأنه أن يحول دون النفاذ إلى صميم نوعيته...

مذاهب كثيرة متعددة متناقضة لا تستقر بحال من الأحـــوال ونقدنـــا المعاصر جدير بأن يأخذ من تراثنا النقدى الأصالة وأن يقـــف أمـــام النقـــد الأوروبى المعاصر موقف المكتشف الناقد وأقـــرب مذاهبـــه إلينـــا مذهـــب الأسلوبية.

الأحكام الأدبية المشبوهة

ليس للنقاد الحرية المطلقة فى أحكامهم الأدبية على نص أو على مبدع، أو على فكر أدبى، فما بالك إذا كانت هذه الأحكام تتناول جيلا كاملا أو مدرسة بأسرها، أو عصرا من عصورنا الأدبية. والنقد التزام ومسئولية والقلم فى يد الناقد لابد من أن يكون رائده البناء لا الهدم ...

وقد أصبح من مفاخر النقاد اليساريين وأشباههم أن يتناولوا الرواد ورواد الأدب فى مصر على الخصوص بروح الهدم واغتيال الشخصية الأدبية اغتيالا تاما.

وقد لمسنا مثل ذلك كذلك فى تاريخنا الأدبى الممتد عبر الأجيال فأبو تمام والمتنبى وابن الرومى وشوقى مثلا عند بعض النقاد ليسوا من الشعر والشعراء فى شيء وقد حاول ناقد أن يحصى ما سماه سرقات المتنبى من أرسطو وإحصاء واسعا وحاولت مدرسة الديوان أن تجرد شوقى من كل شاعرية ... فهل يعقل ذلك أيها النقاد.

ويحاول ناقد أن يرمى مدارسنا الأدبية بالتقليد والأخذ عن الغرب فدعاة الرومانسية فى مصر عنده قد أخذوا عن مدارس الغرب الرومانسية الإنجليزية والفرنسية كل شيء وكل جديد عن رواد الشعر المصرى الحديث مأخوذ من غيرهم، ومسروق من إبداعات سواهم، واستندوا فى ذلك إلى مثل ما كتبه الرافعى فى كتابه "على السفود" وما كتبه العقاد والمازنى فى "الديوان" وما كتبه شكرى عن المازنى فى مقدمات الجزء الخامس من ديوانه وما كتبه رمزى مفتاح فى كتابه رسائل النقد وإلى غير ذلك.

وينسى الناقد أن يرمى شاعر بسرقة معنى من شاعر حكم ادبى قديم وقد وضع النقاد حدودا للرمى بالسرقة، وفصلوا ذلك تفصيلا دقيقا مما ليس موضعه هنا الآن ولو كان الشعراء يلتفتون إلى مثل ذلك لما أبدعوا ولو كانوا يحفلون بمثل هذه الأحكام لفارقوا الشعر إلى الأبد. والمعانى كما يقول الجاحظ مطروحة فى الطريق يعرفها العربى والعجمى والبدوى والحضرى بل والمثقف والعامى أيضا...

وليس من شرف النقد أن نحاول هدم الرواد بحال من الأحوال ولا أن نتعصب ضد إقليم أو ضد المبدعين من أمة، فذلك جور لا تقره نزاهة النقد، وحيف يأباه ضمير الناقد.

وإذا كان العقاد فى رأى الناقد ليس بشاعر أو لم يقدم شيئا للفكر العربى فإننا لا نستطيع إلا أن نقول له رفقا بأحكام النقد وبنزاهة النقاد.

وما كتبه شكرى عن المازنى والعقاد عن شوقى مثلا إنما كان خاضعا لظروف غير ظروفنا اليوم، وبتأثير عوامل ليس لها الآن وجود ثم أن الرومانسية التى دعا إليها العقاد وشكرى وأبو شادى إنما التزمت بأصول الرومانسية فى الآداب العالمية واختلفت اختلافا كبيرا فى الفروع وفى التطبيق ومطران حين كان يدعو إلى الرومانسية إنما كان يحاول التجديد فى الإبداع وليس التجديد فى المدارس الأدبية. لم يكن يحاول هدم الكلاسيكية وإقامة الرومانسية مكانها مثلا، ومدرسة الديوان عنيت بأصول النظرية الرومانسية أكثر مما عنيت بالتطبيق عليها بعكس مدرسة أبولو التى نادت بأصول النظرية وطبقت عليها تطبيقا واسع المجال.

إن النقد له سلطانه وليس من حقه أن يغتال شخصية أدبية من الرواد ولا أن يغتال عصرا بأسره ولا أن يغتال شخصية أمة فى أدبها بحال من الأحوال فالنقد أولا وقبل كل شىء التزام ومسئولية.

عن الشاعر غنيم
من عزيز أباظة إلى الخفاجى

سيدى الأديب الكبير رئيس رابطة الأدب الحديث.

لقد كان يسعدنى ويشرفنى فى وقت معا أن اشترك معكم فى تكريـــم شاعرنا الكبير صديقى الأستاذ محمود غنيم. ولكننى أصابتنى وعكـــة منـــذ أمس. فأعتذر لكم جميعا. وأسف أبلغ الأسف على أننى حرمت هذه المتعـــة. متعة الاستماع إلى أصدقائى الشعراء والأدباء. ومتعة الإسهام فى أبرز مـــا يمتاز به فن الأستاذ غنيم من سماحة وأصالة.

ولكم جميعا أطيب تحياتى. وأكرم تمنياتى،

عزيز أباظة

٢ / ٢/ ١٩٦٢

من أحلام حضرموت ... إلى هموم القاهرة

باكثير (١٩١٠ – ١٩٦٩) هذا الأديب المبدع الذى ينام فـــى راحـــة قرير العين بما أداه للعربية وللأدب من أعمال كبيرة خالدة. ويســـهر النقــاد حول تراثه وإبداعاته دون ملل أو كلل أنه لا ينسى أبدا فى تاريخنا الأدبـــى الحديث لقد كتب أجمل المسرحيات النثرية والشعرية وأحنى الأدباء والكتّــاب رؤوسهم لإبداعه فى الشعر والمسرحية والروايـــة ورائــد الشــعر الحــر بمسرحيته الشعرية "روميو وجوليت" عام ١٩٣٦ قبل تجارب لويس عـوض فى بلوتولاند وتجارب غيره بأكثر من عشر سنوات ثم عــزز إبداعــه فــى المسرح الشعرى بمسرحيته إخناتون ونفرتيتى (١٩٣٨) والحديث عنه وعــن تراثه موصول متجدد أبدا.

وقد قيض الله لهذا التراث أستاذا جامعيا أصيلا، هو الدكتور محمـــد أبو بكر حميد، الذى كتب العديد من الدراسات والبحوث والمقالات والمؤلفات عن باكثير وعطائه وبين يدى الآن كتاب جديد "على أحمد باكثير" من أحــلام حضرموت إلى هموم القاهرة" الذى جمع فيه طائفة من الدراسات والحوارات الأدبية عن باكثير وأعماله الأدبية المختلفة، مما يفسر لنا حياة هذا الأديـــب الكبير وفكره وأدبه، وقدم الدكتور أبو بكر لذلك كله بمقدمة جميلة.

وقد ولد باكثير فى أندونيسيا، وتنقل بين وطنه حضرمـــوت الــذى قضى فيه أيام طفولته، ثم سافر إلى عدن، واليمن والحجاز وأخيرا انتقل إلــى القاهرة عام ١٩٣٤م فالتحق بكلية الآداب فى العام نفسه وتخرج فيــها عــام ١٩٣٨م. ونال بعد ذلك شهادة كلية التربية ولم يستطع العودة إلـــى وطنــه لنشوب الحرب العالمية الثانية فعمــل مدرســا بمدرســة الرشــاد الثانويــة

بالمنصورة (١٩٤٠، ١٩٤٨) ثم استقر فى القاهرة أخيرا وتفرغ للعمل الأدبى وحده.

وكانت ميوله الأدبية قد ظهرت بوادرها من قبل، وغذتها قراءته فى الشعر الحديث ودواوين الشعراء المعاصرين، ومسرحيات شوقى المشهورة، ومسرحيات شكسبير فى الأدب الكلاسيكى الإنجليزى.

كتب باكثير مسرحيته، همام أو فى بلاد الأحقاف "شعرا". وكانت أول تجربة مسرحية له، ثم كتب مسرحية "قصر الهودج" شعرا.

ولكنه عاد فآثر النثر لغة المسرحية ابتداء من "شيلوك الجديد" التى تأثر فيها بمسرحية شكسبير "تاجر البندقية" ثم الفرعون الموعود، وسلامة القس، وإله إسرائيل، وحرب البسوس، وأسلاماه، وهاروت وماروت، ومسمار جحا، والزعيم الأوحد واهتم فى مسرحياته بالقضايا الإنسانية الكبرى كما فى مسرحياته مأسة أوديب وسر شهر زاد وقد عاصر باكثير فى مصر مدرسة البعث والإحياء ومدرسة الدول فى مدرسة أبوللو، كما قرأ لمدرسة المهجر، ولأعلام شعراء هذه المدارس، وشوقى وحافظ والعقاد، والمازنى، وشكرى، وزكى أبو شادى وغيرهم، وقد أولى اهتمامه بمدرسة أبوللو، وكتب عنها يقول:

صادف مجيئي إلى القاهرة ظهور جماعة أبوللو، فاتصلت بهم، واتصلت بأبى شادى وناجى وصالح جودت، وكان الشابى يراسل المجلة فكنا نتصل به من خلال المجلة، والدكتور عبد العزيز عتيق، وغيرهم من شعراء أبوللو، والأستاذ حسن الصيرفى الذى قدم مسرحية همام أو فى بلاد الأحقاف بمقدمة جميلة.

وكان باكثير ينادى دائما بأن الإسلام قوة روحية ومدنية كبرى وأن الإنسان الحائر والمعاصر سيظل دائما فى حاجة إلى الاهتداء بنوره وأن على

كتابنا أن يستضيئوا بهديه وألا يمشون وراء الأيدلوجيات الغربية، وألا يبالوا بمن يرميهم بالغيبية والرجعية والجمود من الشعوبيين والملحدين.

إن فكر باكثير الإبداعى والإسلامى سيظل متوهجا فى تراثه المطبوع والمخطوط الذى يسعى د. محمد أبو بكر وجهود دكتور محسن أبو بكر هذه لا تخدم تراث باكثير فحسب، بل وتخدم أدبنا العربى الحديث خدمة جليلة مقدورة من الأدباء والنقاد المنصفين مشكورا إلى حميد نشره.

- ٢ -

كانت أسرة على أحمد باكثير من ضمن الأسر التى هاجرت فى سبيل حياة أفضل. وكان والده الشيخ أحمد بن محمد باكثير رجلا طموحا وكريما، وقد تمكن من تأسيس تجارة ناجحة له فى مدينة "سوربايا". واستطاع أن يجمع ثروة كبيرة انفق معظمها فى المشاريع الخيرية.

وكان قد تزوج من عربية من بعض أسر الحضارمة المهاجرين. فأنجبت له أربعة أبناء أحدهم أديبنا الراحل ولد سنة ١٩١٠. وفى مدينة "سوربايا" أمضى أحمد على باكثير جانبا من طفولته قبل أن يبدو لوالده أن ينقله إلى حضر موت حيث يستطيع أن يواصل تعلم العربية على يد عمه الشيخ العلامة محمد بن محمد باكثير، الذى يعود إليه الفضل فى توجيه أديبنا الناشئ وجهة أدبية، وإذكاء روح الصبر والمثابرة فيه. وإذا تلمسنا إنتاج باكثير فى تلك المرحلة المبكرة التى سبقت هجرته إلى مصر، وجدنا معظمه لا يعدو نطاق الشعر التقليدى، وبعض المقالات التى كان يكتبها فى مواضيع إصلاحية ودينية. وقد أجمل كل خواطره وأفكاره خلال تلك الفترة المضطربة من حياته فى مسرحية شعرية صدرت له بعد هجرته من حضرموت مباشرة اسماها "همام أو عاصمة الأحقاف".

وإذا نحن تتبعنا شعره خلال تلك المرحلة، وجدناه لا يتعدى أغواض شعر المناسبات المألوفة. وله فى تلك الفترة قصيدة مطولة قالها فى رثاء والده، وأخرى فى رثاء سلطان البلاد، ومطولة أخرى فى مدح النبى - ﷺ - نشرت فى كتاب خاص. هذا غير الإخوانيات والمساجلات الشعرية.

وفى سنة ١٩٣٣ غادر باكثير حضرموت متوجها إلى أقطار الساحل الإفريقى متنقلا من بلد إلى بلد، حتى انتهى به المطاف أخيرا فى الطائف. ولهجرته من حضرموت أسباب كثيرة منها وفاة زوجته وابنته الأولى مما ترك أثرا عميقا فى نفسه، ثم مجاهرة بعض خصومه بأذيته والكيد له. وفى الطائف كتب باكورته الأولى "همام" التى أودعها كل شجونه وآراءه فى الوطنية والإصلاح.

وهو يعترف بعد مضى ثلاث وعشرين سنة من إصدارها بأنه كتبها دون أى إلمام سابق بفن المسرحية، فكانت النتيجة، كما يقول، قصائد ومقطوعات من الشعر بين رقيق وجزل، ويجمعها موضوع واحد.

والآن تلوح له الفرصة للسفر إلى مصر، التى كان لها فى نفسه إكبار وإجلال فهى (كما يقول فى حديث إذاعى) موطن الشعراء الكبار، الذين كان لهم تأثير مبكر عليه، أمثال شوقى وحافظ ومطران، كما أنها منبع الثقافة والفكر الصحيح فى العالم العربى. فإلى مصر ... هاجر إليها سنة ١٩٣٣ وعاش حياته الأولى فيها فى دراسة ومجاهدة، وكان فى تلك الفترة يزود مجلة الرسالة القديمة ببعض منظومه.

ويجب ألا نغفل هنا ناحية مهمة من حياته آنذاك وهى أواصر الصداقة القوية التى عقدها مع جماعة من كبار رجال الدعوة السلفية فى مصر، أمثال محب الدين الخطيب وحامد الفقى والشيخ منير، مما يفسر لنا نشر بعض أعماله الأولى فى مصر على نفقة أصحاب المطابع السلفية. ثم ما

لبثت هذه الصداقة أن أخذت تخف بعد أن راح باكثير يتجه اتجاها أدبيا بحتـا على أثر شروعه فى دراسة الأدب الإنكليزى والتخصص فيه. وخرج مـن ذلك بقواعد جديدة غير معروفة فى الشعر العربى أثارت فى أدبنـا العربـى الحديث ضجة ضخمة.

فقد كان صاحب أول محاولة لنظم الشعر المرسل، عندما أقدم علـى ترجمة مسرحية شكسبير "روميو وجوليت" بهذه الطريقة الجديدة التى خـوج فيها على نظام القافية المعروفة دون أن يخل بالوزن. وقد استغرق بعد ذلـك فى دراسة الأدب الإنكليزى فتفتحت له آفاق أدبية جديدة رحبة.

وقد أخذ نجمة بعد ذلك فى التأليف فكتـب القصـة الطويلـة، ثـم المسرحية النثرية، فالمسرحية الفكاهية والسياسية، وأخيرا البحث الأدبى.

وكان الفقيد صاحب محاولات رائدة فى أدبنا العربى، فـهو رائـد "المسرح السياسى".

وقد توفى رحمه الله فى غرة رمضان على أثر نوبة قلبية عن سن لا تتجاوز التاسعة والخمسين، بعد أن قضى حياته فى عمل متواصل دائب بعيدا عن الضوضاء والأضواء. يقول محمد عبد الحليم عبد الله "فى صباح اليـوم **الأول من شهر رمضان رأيت حملة الأقلام ورجال الفكر يودعونـه، وقـد تخلى معظمهم عن وقاره فبكى". لقد توفى باكثير – رحمه الله – فى الحادى والعشرين من نوفمبر عام ١٩٦٨.**

على شفاه الزمن[1]

- ١ -

قدم للديوان الشاعر الناقد الدكتور مختار الوكيل، فقال:

شاعر رومانسي غنائي، من الشعراء الغنائيين المجددين، وهي امتداد لمدرسة علي محمود طه، وإبراهيم ناجي وصالح جودت والشرنوبي (الهمشري والصيرفي، وموسيقاه في شعره متدفقة.

وكتب الشاعر أحمد رامي قصيدة وجهها إلى الشاعر ونشرت في الديوان (ص ٨٤)، قال فيها:

انظم الشعر يا عمر	في عقود من الدرر
وترنم بسحره	يا أخا السحر يا (عمر)

وكتب الشاعر الكبير صالح جودت قصيدة وجهها إليه أيضا وقال فيها:

كما تلوح الأغاني	فيستحيل الشجن
تختال تلك الأماني	على شفاه الزمن
شعرا لطيف البيان	لا يعتريه الوهن
سلمت للفن ذخرا	ودام هذا الوتر
وعشت دنيا وأخرى	بفنك المقتدر
تشيع في الجو عطرا	من شعرك المزدهر
وتسعد الناس طرا	بسحره يا عمر

وللطوانسي ديوان صدر قبل عام ١٩٤٨ بعنوان (همسات الناي) .. ويقول في تصديره للديوان الذي نتحدث عنه: إنه نظم الشعر منذ الصغر.

- ٢ -

وأظهر سمة لهذا الديوان هي الغنائية، ومن ثم وجدنا جل شعره في الحب والهوى والحنين والهيام، حتى إهداء الديوان يوحي بذلك، فقد أهداه إلى

---

[1] ديوان شعر طبع القاهرة عام ١٩٧٢ - دراسة لديوان الشاعر المصري محمد عمر الطوانسي

ليلاه ... ويقول الطوانسى: إن هذا الديوان قطعة من روح شاعر خفق قلبه بالحب، ويقول من قصيدة بعنوان (شعرى):

شعرى القديم هو الجديد وبحر أيامى تجدد
والشعر يسرى فى عروقى مذ خلقت وكنت فرقد
قلبى شباب رغم هذا العمر حبا كم تنهد
وبصفو أيامى صفاء النور والأمل المغرد.

والقسم الأول من الديوان هو (لمسات حب) وهو قسم وجدانى عاطفى كله يمضى فى الحب ومواقفه وعواطف الشاعر حياله، نجد ذلك فى مثل قصيدته (نجوى) ذات الموسيقى الرنانة والنبرة الهامسة التى كان المهجريون أساتذة الشعراء فيها؛ كما نجده أيضا فى قصيدته (ظمأ الهوى) وهى قصيدة لطيفة مملوءة بحرارة الهوى ولهيب الحب، وزفرات الهيام.

والقسم الثانى من الديوان هو (مع الشعراء)، وهو حافل بالقصائد العالية، كقصيدته (ليالى ناجى) التى تدل على شاعرية أصيلة.

والقسم الثالث من الديوان هو (أحاسيس وألوان)، وهو أو أغلبه حديث من الشاعر عن نفسه، كقصيدته (على شفاه الزمن) التى يقول فيها:

غنيت لحن الحياة على شفاه الزمن

وهى قصيدة ذات قدرة على تصوير أحاسيس الشاعر ومشاعره.. ومثل ذلك قصيدته (بسمة)، وقصيدته (دمعة وفاء)، وقصائد دينية أخرى مثل (ليلة القدر) ، فى (ذكرة الهجرة)، (ربى).

- ٣ -

والديوان على الجملة غنى بآثار الشعر والشاعرية، وبتجاربه الشعرية العميقة. وأقول : إن ديوان " على شفاه الزمن" بموسيقاه الحلوة، وببساطة تعبيره، وبعموديته الجميلة، وبكل ملامح الأصالة فيه. جدير منا بكل حفاوة وإنصاف.

وداع شاعر – د/ أنس داود
١٩٣٤/١٢/١٣ - ١٩٩٣/٤/١٩

رحل عنا الشاعر الكبير الدكتور أنس داود بعد رحلة طويلة مع المرض، وهو شاعر أبوللى من رواد المدرسة الحديثة فى الشعر المصرى فى النصف الثانى من القرن العشرين، وديوانه الأول صدر بعنوان حبيبتى والمدينة الحزينة" ، ومن دواوينه : بقايا عبير ، وعندما يورق الشجر. وجوه الغربة، ومن مؤلفاته كتب رائدة من أهمها:

الأسطورة فى الشعر العربى، والطبيعة فى شعر المهجر، والتجديد فى نفس الشعر بالإضافة إلى دراسات نقدية فى الأدب الحديث، والرؤية الداخلية للنص الشعرى مثل مسرحيات "بنت السلطان، ومحاكمة المتنبى، والملكة والمجنون" وشارك أنس داود فى ندوات القاهرة الأوروبية، ومهرجانات الشعر، ومؤتمرات الأدباء العرب فى حلب، ودمشق والإسكندرية، ومؤتمر الأدباء الأفريقى الأسيوى فى الفترة من عام ٥٩ - ١٩٦٣. وقد كرمته الأوساط الثقافية على إسهاماته الإبداعية فحصل على الجائزة الأولى من المجلس الأعلى للآداب والفنون للشعراء الشبان فى مهرجان الشعر العربى بالإسكندرية عام ١٩٦٢، والجائزة الأولى للشعر القومى من رابطة الأدب الحديث بالقاهرة من نفس العام، وقد صدرت أعماله المسرحية الكاملة فى مجلد واحد يضم عشر مسرحيات شعرية.

والدكتور أنس داود من الكتاب الذين التزموا بلغة تعبيرية شعرية تناسب المسرح الشعرى، فهى لغة تصويرية، والبذور الدرامية لمسرح أنس داود توجد فى قصائده المفردة، ودواوينه التى تؤكد أن "انتقال الشاعر من

التعبير الغنائى الذاتى إلى الموضوعى الدرامى، لم يكن انتقالا فجائيا، وإنما كانت له إرهاصاته فى بنية القصيدة ذاتها،، على النحو الذى يجعلنا نقف أمام أعمال درامية شعرية متميزة، ومضمونها، وشكلها فى حوارها الشعرى المكثف، وفى موسيقاها التى استجابت لطبيعة المسرح الشعرى ذلك أن أى فن من الفنون مرتبط بوظيفة أساسية فى المجتمع الإنسانى، فوجود فن الموسيقى مثلا لا يلغى فن النحت أو الرسم ... أى أن وجود المسرح الشعرى لا يلغى أبدا وجود القصيدة الشعرية.

ولد الدكتور أنس فى قرية من قرى محافظة كفر الشيخ بمصر.

ومن مؤلفاته النقدية (التجديد فى شعر المهجر) وأدب الطفل وعبد الرحمن شكرى نظرات فى شعره و (الرؤية الداخلية للنص الشعر) و (رواد التجديد فى الشعر العربى) و (محمود حسن إسماعيل ... محاولة فى التذوق الفنى) و (دراسات فى الأدب الحديث).

ومن دواوينه الشعرية (قصائد أنس داود). كما أن له عدة مسرحيات شعرية منها (بنت السلطان) و(محاكمة المتنبى) و(الملكة والمجنون) و(بهلول المخبول) و(الأميرة التى عشقت الشاعر).

الشعر اليوم

كتب د/ حسين مؤنس فى صحيفة الأهرام عن شعرنا المعاصر يقول أن شعرنا المعاصر اليوم فى حالة كبيرة من انعدام الـــوزن، وأن الشـــعراء والمجيدين أصبحوا قلة، والقصائد الجيدة صارت نادرة، ومن أجل ذلك ســـار الشعر إلى ضعف ملموس وفقد توازنه وازدهاره السالفين، واحتلـــت فنـــون الأدب الأخرى مكانته الأدبية.

ومع كل التقدير للدكتور فإنى أرى أن الشعر العربى، بـــل الشـــعر العالمى لم يفقد ازدهاره اليوم بحال من الأحوال فلا يزال للشعراء العـــالميين مكانتهم ومنزلتهم فى الفكر الإنسانى، واستشهد بالزعيم السنغالى الأفريقـــى سنغور مثلا، وإن كان يمكن الاستشهاد بشعراء من إنجلترا وفرنسا وإيطاليا، وأسبانيا وألمانيا وروسيا ... وغيرهم...

سأتحدث عن الشعر العربى الذى تخصصت فيه:

الشعر العربى المعاصر فى كل مدارسة وتياراته ومذاهبه يحفل اليوم بأعلام كبار لهم منزلتهم العربية بل العالمية: أ أقول لك : شوقى - حـــافظ مطران - على محمود طه - ناجى - رامى - شكرى - المازنى - العقـاد - عزيز أباظة - صالح جودت - محرم - محمود حسن إسماعيل - أبو شادى - الشابى - زكى مبارك ... مثلا ...

أ أقول لك: غنيم والأسمر - ومحمد عبد الغنى حسن وعلى الجنـــدى والماحى والجارم...

أ أقول لك : أبو ريشة - نزار - خليل مـــــردم - وأنـــور العطـــار وغيرهم.

أ أقول لك : الأخطل الصغير - والقروى والياس فرحات وجـــبران وإيليا أبو ماضى وسواهم...

أ أقول لك: أحمد فتحى - وهلال ناجى ونازك والســـياب وجليلـــة رضا وفدوى طوقان ومحمد إبراهيم أبو سنة والعنتيل وكمال نشأت وكيلانـــى سند وسواهم ...

آلاف يا سيدى العزيز من الشعراء الذين يحفل بهم عصرنا ...

العيب فى العصر يا سيدى إن أدوات النشر أصبحت فى أيد غـــير أيدى الأدباء والشعراء، وأنها أصبحت للجمهور لا للطبقـــات الخاصـــة، وأنها أصبحت تنظر للعائد المائدى لا العائد الثقافى والأدبى.

والعيب فى العصر يا سيدى إن الديكتاتورية. وأزمات العيـــش قـــد طحنتا الإنسان المعاصر فلم تترك فيه بقية ليعيش فى جو عال مـــن الفكـــر والأدب والشعر.

والعيب فى عصرنا أن الجنس وأدب الجنس يقتحمـــان اليـــوم كـــل المجالات لإفساد أذواق الناس...

والعيب فى عصرنا أن الأدب والشعر والفن لا تجد اليـــوم مجـــالا للمنافسة الشريفة مع ألوان النشاط الفكرى الأخرى...

يا سيدى والشعراء اليوم لا يعدون ولا يحصون عددا. ولكنـــك لـــو كنت رئيس تحرير صحيفة ... فسوف تفتح لهم فى جريدتك صفحة واحـــدة يومية يتنفسون فيها، وتنشر لهم فيها إبداعاتهم الأدبية لقرائك...

يا سيدى : وأيضا الشعر طول العصور قد يفخر عصر بأكمله فـــى الدول جميعها بشاعر واحد نقول نحن: أمرؤ القيس مثلا كما نقول إحســـان ونقول: جرير والفرزدق، كما نقول : بشار وأبو نواس، ونقول: أبـــو تمـــام

والبحترى كما نقول: ابن الرومى وابن المعتز أو المتنبى والمعرى، ونقول : شوقى وحافظ ومطران ... اليوم

كما نقول: ناجى وعلى محمود طه والشابى ومحمد إبراهيم أبو سنة..

يا سيدى : الشعراء الكبار جدا قلة، وهم أيضا بعبقريتهم العالمية لا يذكر معهم مئات الشعراء ..

ونحن مع النقاد الذين قالوا:

إن المتنبى وأبا تمام والبحترى اخملوا شعراء عصورهم ... كما أخمل شوقى وحافظ ومطران شعراء عصرهم ...

يا سيدى : الشعراء اليوم كثرة مذهلة، والشعر يتابع مسيرته . على الرغم من اختلاف المذاهب والتيارات والمدارس والأفكار والأيديولوجيات وتطاحنها أيضا...

لن تطوى للشعر راية
فى أمة عرفت بالشعر والشعراء

كانت إنجلترا، واعتزازا منها بشاعرها الكبير شكسبير، تضعه فـــى كفة، وتضع درة مستعمراتها (الهند) فى كفة أخرى، وكان الإنجلـــيز فـــى ذروة مجدهم الإمبراطورى يقولون: أنهم مســـتعدون للتضحيـــة بالـــهند ولا يتنازلون عن نسبة شكسبير إليهم. ونحن مازلنا نذكـــر الحـــرب الســـبعينية ١٨٧١/٧٠م، بين ألمانيا وفرنسا، التى انتصر فيها الجيش الألمانى انتصـــارا ساحقا، وقد هزىء مفكر فرنسى بهذا النصر الكبير، وقال : ما قيمـــة هـــذا النصر الذى نالته ألمانيا على فرنسا فى حربها الســـبعينية التـــى أســـقطت الإمبراطورية الفرنسية، وأقامت الإمبراطورية الألمانية. أجل ما قيمة هـــذا النصر ما دام ليس فى ألمانيا شاعر يخلـــده؟ ومباهـــاة، الأمـــم واعتزازهـــا بشعرائها فى القديم والحديث شىء معروف، ولكننا فى وطننا، بلد العروبـــة والإسلام، لم نعد نضع الشعر فى مكانه ومكانته الكبيرين. والأمثلة على ذلـك كثيرة، أقول أن الأدلة على استهانتنا بالشعر والشاعر لا تخفى علـــى أحـــد، حتى إن وسائل الإعلام عندنا صارت تضيق ذرعا بالشعر وتضيق الخنـــاق عليه، وتختصر المساحات المخصصة له اختصارا شديدا.. ومع ذلك كلـــه فإن جيلنا العربى الراهن مازال يعرف للشعر دوره التاريخى الكبير.

إن الشعر أولا وأخيرا هو أهم فن فى حيـــاة العـــرب فـــى قديمـــهم وحديثهم وهو مجدهم الكبير. . ومن عجب أن الذين ينسبون أنفســـهم إلـــى الشعر من بيننا ويتبنون الشعر الجديد ... هم كذلك سبب من أسباب ضعـــف منزلة الشعر فى حياتنا الراهنة بدعاواهم الكثيرة التى يرددونها بأن الشـــعر

العربى القديم قد انتهى أمره، وأصبح فى خبر كان، وأن الشعر الجديد هو وحده صاحب الصولة فى الميدان.

وشاهد جديد على أننا لا نزال نعرف للشعر والشاعر دورهما التاريخى هو كتاب جديد صدر فى الأردن للأديب الأردنى الكبير روكس العزيزى بعنوان "الشرارات ... من هم؟ - والشرارات كما نعرف قبيلة عربية كبيرة، وقد عنى المؤلف فى كتابه بشعر البادية وشعرائها عناية كبيرة...

فهو إلى جانب تسجيله لنسب القبيلة وتاريخها وعاداتها ورؤسائها عنى كذلك بذكر شعرائها وبذكر نصوص كثيرة مشروحة من أشهر قصائدهم ويقول أديبنا العزيزى فى هذا الكتاب أن الشاعر بالنسبة إلى أية قبيلة هو مجد لها والشعر تراث خالد ولا يطعن فى قيمته أن شعراء القبائل ينظمون أشعارهم باللغة المحلية "الشعبية".

الشعر لن تطوى له راية ولن يخفض له علم فى أمتنا العربية التى عرفت أول ما عرفت بالشعر والشعراء.

التيارات الأدبية فى تونس المعاصرة؟!

دراسة أدبية عميقة لمختلف التيارات الأدبية فى وطن الشعر والأدب، تونس الشقيقة صدرت عن دار المعارف التونسية للطباعة والنشر فى مدينة سوسة إحدى حركات عواصم الأدب فى الوطن الشقيق.

وأهمية هذه الدراسة الجادة أنها تحلل الحركة الأدبية التونسية الحديثة تحليلا صادقا وأمينا، بمختلف أبعادها وتياراتها والعوامل المؤثرة فيها، وتصورها فى أدق مساراتها ومنعطفاتها تصويرا يخرج عن المعتاد. لأنه يضع تحت المجهر أهم المؤثرات فى مسيرة الأدب التونسى المعاصر، ويواكب خطوات التجديد فيه، منذ ثورة أبى القاسم الشابى التجديدية الكبرى فى الشعر التونسى هو ورفقائه. ممن آمنوا معه بضرورة قيام بعث أدبى جديد ينطلق بالشعر إلى أسمى غايته، لكى يؤدى رسالته لجيله وللأجيال المقبلة من بعده، وكما حدث فى مصر من قيام تيار البعث والإحياء على أيدى مدرسة المحافظين، وظهور التيار التجديدى على أيدى رواد كبار صاغوا الفكر الأدبى الجديد صياغة عميقة واشتداد الصراع بين التيارين حدث مثله فى الأدب التونسى المعاصر، ومن خلال هذه الدراسة تتكشف اتجاهات مختلفة غريبة غير معروفة من قبل فى الفترة التى جهدت فيها مدرسة مجلة الفكر واتحاد الكتاب التونسيين لمواصلة خطوات أبى القاسم الشابى من أجل تجديد الفكر الأدبى وتحديثه.

ويزيد من أهمية هذه الدراسة أنها صادرة من مفكر وأديب وناقد تونسى كبير، تعرف جميع البيئات الأدبية العربية والعالمية مكانته وريادته فى الفكر والأدب والنقد، وهو البشير بن سلامة وزير الشئون الثقافية فى

تونس من قبل، وصاحب الجهود الثقافية والفكرية والأدبية الكبيرة المعروفة والذى صدرت له مؤلفات رائدة فى اللغة والبلاغة والنقد والأدب إلى الترجمات العديدة التى نشرت له، من مثل سليمان القانونى، وتاريخ أفريقيا الشمالية، وخير الدين، إلخ.

ويقول الأستاذ البشير فى مقدمة كتابه "أردت من هذا الكتاب أن يكون منطلقا إلى فهم صورة الأدب التونسى، منذ النهضة التونسية الأولى، خاصة الكشف عن الآليات التى جعلته يظهر بمظهر التجديد والثورة مع أبى القاسم الشابى وصحبه، ويستمر على هذا النسق مع "جماعة تحت السور" ثم يأخذ طريقا آخر مغايرا تماما مع أصحاب مجلة المباحث، طاغيا فى هذه المرة فى توجهاته وتأثيراته على المسالك الإبداعية الأخرى، التى شفت فى عسر نهجها بعد استقلال البلاد فليس هذا الكتاب تاريخيا للأدب التونسى، ولا هو وصف للمدارس التى عرفها هذا الأدب، وإنما هو خطوط عامة تكشف عن واقعة بالاعتماد لا على تجربة عشتها فى صلبه، هى من صميم النضال الأدبى الذى كان يتجسم فى بيانات متعاقبة لرؤية واعية لم انفك أصدع بها وعلى ضوئها تبلورت هذه الآراء".

ويقص المؤلف الكبير قصة التيار الأدبى والفكرى المحافظ الذى مهد للحركة الأدبية التى ظهرت ابتداء من العشرينات، والتى أثرت فيها عوامل كثيرة من البيئة والثقافة بل والسياسة أيضا.

ويعرض لتيار التجديد الذى وضح جليا فى فترة العشرينات والثلاثينات، متحدثا عن فكرة الأدب المتأثر بالحركات الأدبية والسياسية والثقافية والاجتماعية فى تونس والعالم العربى وبخاصة مصر.

وفى دراسته للتيار التجديدى فى الأدب التونسى يشرح العوامل الخفية التى أسهمت بدورها فى نشاط حركة الأدب، ومن هذه العوامل قيام جماعة تحت السور، وإحياء التراث، ووضوح المناهج، والتأثر البالغ بالمدارس الجديدة.

وشهدت الحياة الأدبية فى تونس صراعا كبيرا بين مدرسة المحافظين ومدرسة المجددين، كان له أثره فى إثراء حركة الأدب والشعراء إثراءا بالغا.

ويعرض المؤلف للفكر الاستشراقى فى الأدب التونسى المعاصر، موضحا مداه وغايته ومنهجه كما يوضح أثر مدرسة الفكر فى الأدب، وأثره مدرسة مجلة العالم الأدبى ومجلة التجديد، وغير ذلك من بحوث الكتاب.

وهكذا نجد المؤلف الكبير يتعمق فى رسم صورة الأدب التونسى المعاصر، فى شتى اتجاهاته وتياراته ومدارسه، تعمقا يكشف عن حقائق أدبية كثيرة مجهولة.

ومع الإيجاز البليغ فى هذه الدراسة نجد أن صورة الأدب التونسى المعاصر قد اتضحت معالمها وأبعادها ومساراتها وتياراتها واتجاهاتها بهذه الملاحظات الذكية العديدة التى أبداها. فى كثير من الوضوح حول حركة الأديب التونسى محمود المسعدى وجماعة تحت السور، وغيرهم فى ثورتهم على المحافظين. مع أن الأدب التونسى ظل يخطو خطوات كبيرة تبين تيار المجددين ولم يعش محصورا فى المعنى التقليدى للصراع بين المدرستين، بل جد على صفحته ظهور تيار طارئ مفاجئ ذى مسحة استشراقية.

وأنصار التجديد يدعون إلى انصهار الأديب فى شعبه من خلال الحياة والواقع. واستشراق المستقبل وصنعه، ليلتحم بأعظم الاتجاهات حداثة وأعمقها ثورة وعصرية: ويقف المحافظون بين الشرق والغرب فى حيرة وتردد.

ولكن تبقى مدرسة الفكر شامخة قوية مؤثرة فى حركة الأدب التونسى المعاصر فى كل مناحيه وتظل بآرائها وأفكارها ودعوتها لازدهار الأدب وعملها من أجل نهضته صاحبة أكبر دعوة إلى أن يعود الأدب فى تونس إلى حملة شعلة التقديم والحضارة والفكر والتجديد.

توفيق الحكيم ... والذوادى

نشر أديب تونس بتوقيع ابن المقفع فى جريدة الحرية التونسية مقالا شكك فيه فى مقال نسبه الأديب التونسى رشيد الذوادى إلى توفيق الحكيم بعنوان (رشيد الذوادى أديب من تونس).

ومجلة الحضارة تؤكد من جديد أن كاتب المقال المنوه به هو توفيق الحكيم نفسه.

وقد كنا فى زيارة أديبنا الحكيم فى منزله مساء ١٩٨٦/٨/٢٩ وسلمنا بنفسه المقال المذكور تحية للحضارة التى تحمل روحه وفلسفته وفكره، وللذوادى هذا الأديب الذى كان همزة الوصل بين أدباء وطنه تونس وأدباء مصر والعالم العربى، وقدم للحركة الأدبية فى بلاده زادا كبيرا من الصدقات والأفكار والمبادئ.

لقد طلب الحكيم منا أن ننشر مقاله موقعا عليه باسمه فى الحضارة.

وهذه شهادة منا بذلك للحقيقة وللتاريخ واحتراما لروح أديبنا الخالد الحكيم وفكره وذكراه رحمه الله.

الشعر فى مصر القديمة

- ١ -

كان للشعر فى مصر منزلة عالية،، نستطيع تلمسها فـــى عصـــور مصر القديمة المتعاقبة عصر ما قبل العصر القديم، وهـــو عصـــر الأســـرة الأولى والثانية.

- العصر القديم، وهو عصر الأسر المالكة (٣-٨).
- العصر المتوسط وهو عصر الأسرتين ٩، ١٠ ونصف الأســـرة الحادية عشر.
- العصر الوسيط، عصر الأسر ١١- ١٤.
- عصر الهكسوس، ويشمل الأسر ١٥ – ١٨.
- العصر الحديث، ويضم الأسرة ١٨ حتى الأسرة الثانية والثلاثين.

وهذه العصور كلها تمتد ٢٧٦٨ عاماً من ٢٦٥٠ ق. م حتى عـــام ١١٨م..

وقد دون شعر هذه العصور كلها على أوراق البردى، والكثير منـــه منقوش على الحجر وجدران المعابد والقبور، ويتحدث عنه الدكتور عطيـــه عامر فى كتابه ... أدب مصر القديمة وعن أقسام من النصوص أوردها فـــى كتابه وهذه النصوص هى:

-نصوص الأدب الدينى، ومنه نص قصير من كتاب "الموتى".

نص أدب الحكمة والأمثال.

نصوص أدب الكتابة والنقد.

نصوص من الشعر الغنائى.

نصوص الحوليات، وهى تدور حول الفخر والترجمة الذاتية وشعر الغزل ونشيد النيل.

- ٢ -

ولقد قدمت مصر للعالم أعظم إبداعات ثقافية ابتدعتها البشرية، كما يقول هوفمان الذى يؤكد بأن مصر أصل الحضارة والدولة.

وحين صحب الشاعر المسرحى إيربيد أفلاطون فى رحلته إلى مصر، شكا من بعض المرض، فقال له بعض الكهنة فى عين شمس : إن دواءك يوجد فى مياه النيل لأنها تشفى جميع الأمراض فشرب من ميـه النيل فزال عنه المرض، وعادت إليه صحته.

- ٣ -

ولقد قام العالم الفرنسى الدكتور روجيه عام ١٨٥٢ بدراسة عن الأدب الفرعونى، ضمت مجموعة من الشعر والقصص.

وفى عام ١٨٧٢ صدر لماسبيرو كتاب بعنوان: أدب الرسائل عند المصريين، وبعد عشر سنوات أصدر كتابه "القصص الشعبية" فى مصر القديمة، وترجم عام ١٩١٢ "نشيد النيل" وطبعه فى القاهرة.

وأصدر الأستاذ الألمانى مولر كتابه "شعر الغزل عند قدماء المصريين" عام ١٨٩٩، كما أصدر فيدمان الألمانى كتابه "حكايات وقصص مصر القديمة" عام ١٩٠٦.

وأصدر عام ١٩٤٥ الأستاذ دريونون كتابه "المسرح المصرى" وفى عام ١٩٤٩ أصدر فى لندن الأستاذ "مورى" كتابه "الشعر الدينى المصرى"، وأصدر جليبر البلجيكى كتاب "الشعر المصرى"وأخرج "هرمان" كتابه "شعر الغزل فى مصر القديمة" عام ١٩٥٩، وأصدر عام ١٩٦٢ الدكتور

أحمد عبد الحميد يوسف كتابه "فى الأدب المصرى القديم" واصـــدر كمـــال الدين الحناوى كتاب "أساطير فرعونية" مترجما.

وأصدر برشيانى الإيطالى كتابه "أدب وشعر مصر القديمة". وصدر للأستاذ ليشتهيم كتاب "أدب وشعر مصر الفرعونية".

إلى غير ذلك من الكتب التى كتبها أدباء وعلماء أثريون عن الشـــعر المصرى.

ونقرأ فى كتاب الدكتور عامر عطية "المطبوع فى الأنجلو المصرية" من قصائد الشعر:

- حوليات تحتمس الثالث.
- قصيدة للملك تحتمس الثالث.
- قصيدة عن أبى الهول للملك أيمنحوتب الثانى.
- قصيدة لشاعر مجهول عن خلود الكاتب.
- قصيدة أحزان مواطن مصر للشاعر أبيوور.
- عدة قصائد للشاعر باحيرى.

وفى هذه النصوص وغيرها تجد شخصية الشاعر المصرى القديـــم ومشاعره وعواطفه ماثلة أمام العين، كما توجد فيه أثر البيئة المصرية، أثـــر النيل والمعابد والآلهة القديمة، فى مصر واضحا كل الوضوح، وهو يتمـــيز ببساطته ووضوحه وواقعيته وإحكامه، وبتصويره لطبيعة مصر فى صـــورة حية صادقة ولتجارب الشاعر المصرى القديم وأحلامه وآماله وآلامه، ممـــا يحمل طابق، وينطق بلسانه، ويعبر عما فى وجدانه فى قوة وجلاء.

وأنشودة إخناتون تتميز بعباراتها الحرة الطليقة، ولغتـــها البســـيطة. وأغانى الحب تعتبر من أهم ما أسهم بـــه الشـــاعر المصـــرى فـــى الأدب

الإنسانى، مع صدق التعبير عن عاطفة الشاعر، وعن تمجيده للطبيعة. مع الخلو من الزينة والزخرف البيانى.

وكان الأدب المصرى - شعرا ونثرا - يقرأ ويدرس للشبان فى المدارس، وكان التلاميذ يكتبونه[1] ويحفظونه، كما كانوا يعتزون بمكانة الكاتب فى المجتمع، ومازالوا بأمحوتب الكاتب أكبر موظفى الملك زوسر رأس الأسرة الثالثة إلى أن سموا به إلى مصاف الآلهة، لا لبراعته فى الطب والهندسة فحسب، وإنما لبراعته فى الأدب أيضا، وكذلك صنعوا بأمنتحب بن حابو وزير الملك أمنحتب الثالث وفى إحدى برديات الأسرة ١٩ عن الأدباء أنهم لم يشيدوا لأنفسهم أهرامات من معدن، أو نصباً من حديد، ولم يتركوا أبناء ورثة ليخلدوا أسماءهم، وإنما خلفوا لهم ورثة من كتبهم وأشعارهم، إنهم خلفوا لأنفسهم أهرامات فى قلوب من ذكر أسماءهم، فالكتاب هو ذكراهم وخلودهم إلى الأبد.

لقد ملك المصريون ناصية البلاغة والمعانى والأفكار، مع حرصهم على تجويد الكلام وعلى الجمال الفنى والتأثير الشعرى.

ونعرف بما وصل إلينا أنهم كتبوا فى المديح والرثاء والغزل والغناء، واستطاعوا وصف المشاعر الإنسانية من الحزن والفرح، والغضب والرضا، واللذة والألم، وكان الدين أعمق ثقافاتهم وأكبرهم أثرا فى تصوراتهم وأخيلتهم، وكان مدعاة لكثير من الأدعية. كما كان من عوامل النهوض بالإنسان، ويتجلى ذلك بوضوح فيما حفظ من نصوصه وعلى رأسها متون الأهرام التى فاضت بالأخيلة والتشبيهات والمجاز والتورية والجناس وتشخيص الأفكار فى صور حية، وكانوا يتصورون أن الآلهة ستات هى ربة الكتابة، وورد فى الأثر أن الملك سنفرو دعا رجاله يوما فسألهم أن يجدوا له

---

[1] ص١٩ فى الأدب المصرى القديم د. أحمد يوسف.

من بينهم واحداً يحدثه بالحكمة والمقدرة والأقوال البليغة والأحاديث المختارة التى تسر قلب جلالته وكان الملك حورم حب يعتز بالكتابة وصفة الكاتب إلى حد كبير.

- ٤ -

ومن متون الأهرام فى الدولة القديمة يقول الشاعر المصرى القديم:

حمدا لك يا موجود

يا من نشأ من ذاته

يا رفيع فى اسمك الرفيع[١]

ومن مرثية لملك متوفى:

لقد بكيت من أجلك وانتحبت من أجلك

إننى لن أنساك

لقد غامت السماء

وسقطت الأنجم مطراً

إلى آخر هذه القصيدة[٢]

وتقرأ قصيدة "كاره الحياة وحواره مع روحه"[٣]، أو قصيدة الدعـــوة إلى المرح فى الدنيا[٤]، فتجد البساطة والجمال الفنى واضحين، وكذلك تعـاليم الملك امنمحات لابنه سنوسرت[٥]، مما كان له أثره فى نفس كل مصـــــرى، وكان الناس يحفظونها ويلقونها بالإعجاب والتقدير.

---

[١] راجع القصيدة فى ص٥٨ فى الأدب المصرى القديم.

[٢] ص٥٩ المرجع نفسه.

[٣] ص٧٦، ٧٧ المرجع نفسه.

[٤] ص٧٨ المرجع نفسه.

[٥] ص٨٤، ٨٥، ٨٦ المرجع نفسه.

وبلاغة قصة الفلاح الفصيح[١]، وهى نثر ممزوج بالشــعر. كــانت تضرب الأمثال فى البلاغة، وقد أعجب بها الملك منكاورع ووزيره نفصاحة الفلاح، وحرصا على الاستماع إليه والاستمتاع بما ينطق به، وكان هذا الملك يحب الأدب ويكافئ عليه حتى أنه لما سمع هذه القطعة من فم الفــلاح أمــر برعايته ورزقه ورزق عياله حتى يفصل فى أمره.

- ٥ -

وهذا شاعر مصرى قديم يقول فى "أنشودة له عن النيل"[٢]

"حمداً لك أيها النيل

يا من خرجت من الأرض وأقبلت تغزو مصر

فإن منه الندى الذى يهمى من السماء

أنه سيد الأسماك

وصانع الشعير ومنشئ القمح

إذا هبط كانت الأرض كلها فى فزع

وحزن الكبير والصغير

وإذا ارتفع كانت الأرض فى احتفال

وكل امرئ فى سرور"

وقد صاغ إخناتون أناشيد بليغة تعبر عن شعوره الدينى العميق وعن دعوته إلى التوحيد، وهذه الأناشيد هى من أروع ما عرف من آداب الدولـــة الحديثة يقول فى أنشودة له[٣]:

"شروقك جميل فى أفق السماء

---

[١] ٨٧ ٩٣ فى الأدب المصرى القديم، د. أحمد يوسف.

[٢] ص٩٤ المرجع نفسه.

[٣] ص١١٩ فى الأدب المصرى القديم.

يا أتون يا حى يا مبدئ الحياة

إذا طلعت فى الأفق الشرقى

ملأ الأرض كلها بجمالك

أنت جميل عظيم تتلألأ عاليا فوق كل البلاد

إنك رفيع وأشعتك فى الأرض

تضىء الأرض إذا أشرقت فى الأفق

فتكشف الظلام عندما ترسل أشعتك

وإذا مصر فى حبور كل يوم

يصحو الناس وينهضون على أقدامهم

وفى العالم كله يؤدون أعمالهم

يا معطى الحياة للوليد فى جسد أمه

ما أعظم أعمالك

يا خالق الأرض كيف شئت"

وفى هذه الأنشودة تصوير لجمال الطبيعة ولأضواء الشمس كأحسن ما يكون التعبير وفى الغزل تجد قصائد كثيرة منها:

أغانى الفتاة

أغانى الفتى

وفى غير الغزل تقرأ قصيدة دعاء رمسيس فى المحنة، إلى غير ذلك من قصائد الشعراء القدماء، التى تفيض بلاغة وإشراقا وجمالا.

وهكذا حرص الشاعر المصرى القديم على التعبير فى بلاغة ووضوح عن مشاعره وعواطفه وشخصيته وبيئته، وكان يحدوه الأمل فى السعادة والفرح والبشر، وسعادته دائما تنبع من شاعريته، وشعره.

أين الرواية الرومانسية ؟

استطلعت مجلة النهضة الكويتية اراء عدد من النقاد حول ذلك وهم بترتيب ذكرهم فى المجلة الدكاترة والأساتذة: خفاجى - نبيل راغب جمال الغيطانى يسرى العرب، قالت المجلة : الدكتور خفاجى ناقد الأدبى المشهور له رؤية فى ذلك، يقول :

الرومانسية لغة الوجدان الذى لا يمكن أن يحيا الإنسان بدون الاستماع إلى نبضه ، على أن الرومانسية قد يكون فيها لون من الواقعية والواقعية قد يكون فيها جانب من الرومانسية.

والرواية الرومانسية شهدت مرحلة ازدهارها فى العشرينات حيث كانت كمذهب أدبى ونقدى جديد يمثل التطور الفكرى والأدبى فى أوروبا فبدأ ظهوره فى العالم العربى لكن فترة الرومانسية التى فى الرواية تمثلت أيضا فى الشعر فى مدرسة أبولو. قد بدأت تنتهى بتأثير التطورات السياسية والاجتماعية والاقتصادية فى العالم كله وبتأثير الأفكار الجديدة وسيادة الواقعية والعنف كل ذلك أدى إلى تقلص ظل الرواية الرومانسية ولا أعتقد خلال المرحلة الحالية عودتها لأن الواقع أكبر من الأحلام ومن لغة الوجدان المطلوبة من الرواية الرومانسية.

هذا هو أدونيس

- ١ -

نشرت المجلة العربية – الرياض في عـــدد مـــن أعدادهـــا عـــام ١٤٠٩هـ كلمة تقول فيها:

جريدة الأهرام المصرية نشرت على إحدى صفحاتها – مؤخـــرا - مقالة لأحد كتابها الكبار الذى اعترض على زيارة الشاعر "أدونيس" للقـــاهرة والاحتفال الكبير به، وهو المعروف بمواقفه المعادية للإسلام والعروبـــة ... بل إنه اعترف بأشياء خطيرة – في القاهرة – كما جاء في هذه السطور التى نشرتها الأهرام.

أدونيس هذا الشاعر العجيب، الذى زار القاهرة، فاحتفل به، بصفـــة رسمية، وأقيمت له أمسية شعرية ألقى فيها الشاعر مقتطفات من ديوانه "وقت بين الرماد والورد" ومقتطفات من قصيدة "الوقت من كتاب الحصار".

وكتبت عنه صحفنا ومجلاتنا مقـــالات طويلـــة، وتتبعـــت أخبـــاره ومقابلاته وكأنه رئيس دولة كبرى وأنا لا أدرى كيف يحدث هذا؟ وفـــى أى عصر يمكن أن يحدث مثل ذلك؟ ولأى سبب يكون هذا الاستقبال الـــذى لـــم يحظ به شاعر عربى قدم إلى القاهرة؟

أدونيس الذى يصرخ معترفا مقرا، واصفا نفسه بقوله:

"أنا شعوبى وشاعر

أعترف بأننى مخرب عظيم".

يقول ذلك فى وسط القاهرة التى احتفلت به والقاهرة عربية وأدنيـــس شعوبى أى يحارب العروبة.

والقاهرة سنية وأدونيس شيعي.

والقاهرة عاصمة إسلامية، وأدونيس مخرب عظيم، وفـــى أول مـــا يحاربه فى شعره الإسلام.

أدونيس الذى يتهكم على العقل العربى، ويتهمه بسيادة الذهنية الدينية. والذى يصر على أن رسالته هى استمرار تخريب العقلية العربيـــة، ونســف الأسس الدينية ونفيها خارج العقل العربى ... أدونيس الـــذى يرى نفســه فينيقيا، ويرى وطنه لبنان يعيش بحاضره فى ماضى حضارته الفينيقية.

ومع ذلك كله يرحب به فى القاهرة شاعرا عربيـــا كبـــيرا، وكأنـــه المتنبى جاء لعاصمة مصر العربية الإسلامية القاهرة لا أســـتطيع أن أفـــهم ذلك).

- ٢ -

وفى حوار منشور فى جريدة الأخبار [١] المصرية مع أدونيس أجراه مصطفى عبد الله يقول أدونيس:

ليس هناك نص دينى أو أدبى يقول لنا : لقد وقفت عبقريـــة اللغـــة العربية عند هذا الحد أو ذاك . وإنما عبقرية العربية متحركـــة ولا نهائيـــة تحرك الإنسان العربى ولا نهائيته. والعبقرية التى تجلت فى أشكالها الماضية يمكن أن تتجلى فى أشكال جديدة أخرى. وإذن يجب أن نعنى بالإبداعية فـــى الدرجة الأولى.وهؤلاء الذين يكتبون اليوم شعرا له شكل الأوزان القديمـــة لا يقدمون شعرا على الإطلاق وإنما يقدمون تشكيلات تقليدية ليس فيها أى لهب شعرى. ولذلك نحن ضد التقليد والمقلدين ولسنا ضد بحور الخليل.

وإذا قمنا بهذا التمييز، فأنا شخصيا لا أجد شاعرا واحد مهما يكتـــب وفاقا للتقليد القديم.

---

[١] عدد ١ مايو ١٩٨٧.

ويجب أن يدرك هؤلاء أنهم هم أنفسهم ضد بحور الخليل ذاتها. لأن هذه البحور هى كمثل الأمواج يجب أن تنطلق من نفوسهم، ويشعر القـــارئ أنها جزء جوهرى من تجربتهم. لكنها تبدو على العكـــس مجـــرد قوالـــب، وأفكارهم مجرد تكرار وصورهم مجرد استعادة للماضى بحيث يبدو أن هناك "مضمونا" تقليديا يصب فى قالب تقليدى.

وبهذا المعنى الذين يقتلون الخليل ويشوهون دلالات أوزانه هم هؤلاء التقليديون أنفسهم الذين لا يعرفون حتى أن يقلدوا.

الأدب القطرى الحديث

الدكتور محمد عبد الرحيم كافود المفكر والأديب المعروف سجل فى كتاب صدر بعنوان "الأدب القطرى الحديث" حالة الأدب القطرى فى العصر الحديث، وتتبع مراحله وأطواره ومكانته بين الآداب العربية عامة ... فى دراسة مستوعبة وتحليل دقيق، وعرض شامل، وتفصيل شامل.

ولقد ألقى الأضواء فى صدر الكتاب على تاريخ قطر، وعلى صورة الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية فى هذا القطر الشقيق، مقدمة لدراسة الأدب وتصوره فيه.

وعرض للنثر الفنى فى مرحلتيه المتتابعتين، حيث انتقل من المرحلة الأولى مرحلة البناء والتأسيس والضعف إلى المرحلة الثانية مرحلة النهضة والازدهار، حيث أخذ النثر الفنى فى الأقطار العربية الشقيقة الأخرى شكلا وموضوعا، فقد تعددت اتجاهاته، وتنوعت موضوعاته، فوجدنا أدب المقال، والقصة والمسرحية، وأدب الخواطر الذاتية، حيث سرت إليه سمات المذاهب الحديثة فى الصور والأخيلة، كما تحرر من قيود الصناعة اللفظية، التى كان يرسف فيها.

وكذلك عاش الشعر فى مرحلته الأولى مكبلا بقيود التقليد والصنعة، مع ضيق فى الأفق، وضعف فى الأسلوب، وقله محدودة فى الأغراض، ومع طغيان الشعر الشعبى (النبطى) عليه وفى المرحلة الثانية التى ازدهرت فيها الحياة المادية والعلمية والأدبية أخذ الشعر كذلك طريقه إلى النهضة والازدهار، متابعا خطوات الشعر فى الأقطار الأخرى الشقيقة، ومتأثرا بالاتجاهات والتيارات الجديدة التى ظهرت فى الشعر، وحيث بدأت تظهر

النزعات الرومانسية والرمزية إلى جانب المدرسة المحافظة التـى تـأثرت بالثقافة الحديثة فقوى أسلوبها وتعددت موضوعاتها.

وعرض المؤلف لأشهر أعلام الشعر القطرى فى كـلا المرحلتيـن، كاشفا عن جوانب التقليد وجوانب الأصالة والتحـرر والتجديـد عنـد كـل شخصية تناولها، وكل شاعرية عرض لها ومن المفيد جـدا أن نعـرف أن الدكتور المؤلف جعل المرحلة الأولى تبدأ من أوائل القـرن التاسـع عشـر وحتى منتصف القرن العشرين.

والمرحلة الثانية حددها ببداية النصف الثانى من القرن العشرين حتى الوقت الحاضر، وهى الازدهار المادى والعلمى والثقافى.

إن الدكتور كافود فى هذا الكتاب يبلغ غاية الدقة والأمانـة العلميـة ووضوح الرأى والشخصية معا ولا شك أن هذا الكتاب، وهو الكتـاب الأول الذى صدر عن الأب القطرى يمثل تمام التمثيل حالة الأدب القطرى الحديـث بجلاء واستقصاء.

الإسلام ... وحركة التاريخ

- ١ -

يطالعنا فى هذا السفر الثمين فكر عالمين كبيرين:

المؤلف المستشرق الكبير إدورد مور تيمـــور بمنهجـــه الأكـــاديمى الدقيق، وبسعة إحاطته بمختلف الحركات الإسلامية التى حدثت فى الإســـلام قديما وحديثا، عبر القرون والأجيال الطويلة، وبدقة بحثه المستند إلى حركـــة التاريخ الإسلامى فى وطن المسلمين.

والمترجم الأستاذ الدكتور عبد المنعم إسماعيل الأستاذ بآداب جامعة عين شمي، والباحث والكاتب والأديب المتمكن، بروحـــه العلميـــة وثقافتـــه العربية والإنجليزية الواسعة، وببلاغته المتميزة أسلوباً ومضموناً وفكراً.

وكل ذلك أعطى لهذا السفر القيم سمة التفرد فى البحث حـــول فكـــر الإسلام ورسالته وتاريخه على امتداد العصور.

والواقع أننا لا نجد مثل هذا العمق فى كتاب مؤلـــف عـــن الإســـلام وتاريخه بما يضارع ذلك فى هذا الكتاب.

المؤلف والمترجم يشتركان معا فى إعطاء هذا الكتاب قيمته وخطـوه فى الدراسات الإسلامية المعاصرة، ويكاد المؤلف بإلمامـــه الكبـــير بتـــاريخ الإسلام، والمترجم ببلاغة أسلوبه فى الترجمة وبدقته العلمية المتمثلـــة فـــى تعليقاته على آراء المؤلف، يكادان معا يعطيان لهذا الكتاب كل قيمة رفيعـــة فى التأليف المتخصص عن الإسلام وتاريخه الطويل، عبر أربعة عشر قرنـــا من الزمان.

- ٢ -

هذا الكتاب بجزئيه ينطوى على قسمين كبيرين ... الفكر الإســـلامى عبر المذاهب والفرق الإسلامية القديمة قسم.

وتطبيقات هذا الفكر فى وطن المسلمين، وعبر ست دول: تركيــا - السعودية - إيران - باكستان - مصر - الاتحاد السوفيتى؛ قسم ثـــان مـــن الكتاب. والقسمان معا يضمهما هذا الكتاب بجزئيه فى هذه الطبعة التى بيــن أيدينا. المؤلف وقف مذهولا أمام الثورة الإسلامية فى إيران التى قامت فجـأة عام ١٩٧٩، ورفعه هذا الحدث الكبير إلى دراسة الإسلام وموقف المذاهــب الإسلامية، القديمة والمدارس السياسية الفكرية الحديثة، من جوهر هذا الديــن وروحه المضيئة من هذا الكتاب (٥٤ حـــ ٢).

وكانت سعة إلمام المؤلف بأحداث التاريخ الإسلامى طيلــــة قـــرون عديدة من الزمان، إلى روحه العلمية الأكاديمية الخصبة عاملا فـــى ثـــراء الكتاب، بل وفى عظمته كمؤلف فريد يستقصى كل أحداث تاريخ المســـلمين الطويل استقصاء لا يكاد يوجد فى بحث أو عند باحث متخصـــص أخـــر. وكانت أحداث هذا التاريخ مادة فى يدى المؤلف يصرفها كيفما يشاء، ويستفيد منها ويأخذ عنها ويرجع إليها كما أراد.

- ٣ -

إن المؤلف يرى أن الإسلام يمكن أن يحدد معناه بأنه دين المسلمين

والمزج بين الإسلام وواقـــع المســـلمين السياســـى والاجتمـــاعى والاقتصادى والثقافى لا يكاد تقره الأعراف الأكاديمية، وبين جوهر عقيدة ما وتطبيقاتها فى مجتمع بون كبير، وتفسيرات المؤمنين بأية عقيدة لا يمكـن أن تكون كلها صوابا محضا كما لا يمكن أن تكون كلها خطأ محضا.

والخط السياسى لعقيدة ما قد يسير غير متواز مع هذه العقيدة نفسها.

ومع ذلك فإننا نرى المؤلف يؤكد فى فصل الختام أن الأفكار الغربية عن الإسلام – من حيث هو قوة سياسية – سواء كانت تهديدا للعالم الحر، أو حليفا متوقعا لها ضد الشيوعية السوفيتية – إنما هى أفكار فى غير محلها جملة وتفصيلا. (٩٨ جـ ٢ من هذا الكتاب).

– ٤ –

قد يكون هذا الكتاب قد كان الدافع الحقيقى إلى كتابته الانتصار للديمقراطية الغربية ضد الماركسية الشيوعية قبيل سقوطها بسنوات قلائل، ولو أنه ألف بعد سقوط الاتحاد السوفيتى لكان له جانب آخر فى البحث، ووجه مخالف فى التأليف.

ومع ذلك فإن هذا الكتاب بمنهجه الأكاديمى الجليل وبمادته التاريخية والإسلامية الواسعة، وباستقصائه فى دراسة الظواهر وتحليلها، وبما أضفاه عليه المؤلف والمترجم من ثروة بحثية، يعد عملا متفردا لا مثيل له فى الدراسات الحديثة – عن الإسلام وفكره عبر أربعة عشر قرنا من الزمان.

من الذى نهنئه بظهور هذا الكتاب؟

المؤلف أم المترجم أم القارئ أم البحث العلمى الأكاديمى المتميز الذى يتراءى فى أفكار هذا الكتاب، الذى نترك للدارسين المتخصصين الحكم عليها وبيان قيمتها خطأ أو صوابا على ضوء الموازين الأكاديمية الدقيقة... هذا الكتاب حقا موسوعة كبيرة حول الفكر الإسلامى وتاريخه والتطبيقات المختلفة له فى العالم الإسلامى الكبير الممتد من الصين شرقا إلى المحيط الأطلسى غربا.

القرآن الكريم
وأزمة الإنسان المعاصر

- ١ -

قال الله تعالى فى كتابه الحكيم فى مطلع سورة الرحمـــن: "الرحمـــن علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان"[١].

صدق الله العظيم، صدق الرحمن الرحيم

علم رسوله والناس والإنسانية كلها القرآن الكريـــم، علمـــهم دينـــه وشريعته وألزمهم بناموس السماء، وألزمهم كلمة الإيمـــان، كلمـــة التقـــوى والدين والوحى، والأمانة والمسئولية، وكانوا أحق بها وأهلها.

وليس هناك نواميس تحكم الكون والحيـــاة والوجـــود والإنســـان إلا الإيمان، إلا الدين، إلا منهج السماء، إلا القرآن الكريم[٢] "إن الإنســـانية لـــم يعرف تشريعا عالميا غير الإسلام قط، لم تعرفه فى الماضى، ولـــم تعرفـــه حتى اليوم"[٣].

إن القرآن هو إلى الفطرة بحيث يلتئم مع حاجات الشعوب:

إن القرآن ليس كتابا أدبيا (فحسب) وإنما هو حياة، والإسلام نفســـه طريقة حياة وطريقة فى التفكير (٣٤ الإسلام بين الشرق والغرب).

---

[١] ١-٤ من سورة الرحمن.

[٢] يقول د. موريس الفرنسى: القرآن أفضل كتاب أخرجته العناية الأزلية لبنى البشر.

[٣] ١٢ الإسلام والإنسان المعاصر – فتحى رضوان – سلسلة اقرأ – عدد ٤٠٦.

وإذا أرادت الإنسانية الهداية إلى رشدها آمنت، وجعلت القرآن نورها الذى تمشى فى أضوائه، وإذا ضلت وأرادت لنفسها الشقاء خرجت عن منهج هذا الكتاب العظيم.

يقول الله عز وجل لنبيه الكريم: "واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها، فأتبعه الشيطان، فكان من الغاوين" ولو شئنا لرفعناه بها. ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه"[1].

إن رسالة القرآن هى رسالة الإيمان والإسلام والإحسان[2].

يقول جوته: القرآن سيحافظ على تأثيره إلى الأبد لأن تعاليمه مطابقة للحاجات الفكرية لقوم معتزين بتقاليدهم.

إن أزمات الإنسانية والإنسان والحضارة اليوم هى أزمة الانسلاخ من نواميس السماء ومن منهج الوحى والدين والقرآن الكريم.

وهى أزمة تمثل تيارات عاصفة تكاد تهوى بالعالم إلى مكان سحيق.

وأزمة الإنسان المعاصر فى الحاضر تتمثل فى عدة جوانب، يدعم بعضها البعض الآخر وتسير بالمجتمعات والشعوب إلى حيث الانحلال والانهيار والدمار.

- ٢ -

وأولى أزمات الإنسان المعاصر اليوم الأزمة الروحية، أزمة الإنسان مع الوجود والحياة والكون، بل مع نفسه، بل مع رب السماء والأرض والناس أجمعين، مع الله جل جلاله.

ومن البلاد هى أن القرآن الكريم قد حل هذه الأزمة وفك تلك المغاليق، حلا كاملا.

---

[1] ١٧٥ – ١٧٦ – الأعراف.

[2] الإسلام دعوة عالمية للعقاد ، كتاب الهلال عدد ٢٣٧ نوفمبر ١٩٧٠.

فالكون كله هو مشيئة الخالق العظيم، وتدبير الإله المبدع، مدبر كـل شىء فى هذا الوجود، وهو المعبود بحق، ولا إله سواه، الإيمـان شـريعته، والتوحيد دعوته، وتجديد صلة الإنسان بربه هو المنهج القرآنى الجليل المؤثر كل التأثير فى حياة الأفراد والجماعات، والشعوب.

ولكن إنسان العصر الحديث قد امتلكه الغرور، وابتلى بزعم سـلطان العقل، وبأن هذا السلطان يفرض مشيئته على كل شىء فى الحياة، فليس غير سلطانه شىء فى هذا الوجود ... ومن ثم نشأت دعوات العلمانيـة والماديـة الجدلية - والإلحاد والإباحية المطلقة التى لا تعترف بالنواميس والثوابت على الإطلاق.

القرآن الكريم والإيمان له هو الحل الوحيد لهذه الأزمة الروحية التى يجابهها الإنسان، ويجابه بسببها آلاف المشكلات والأزمات والعواصف.

أن نؤمن بإله واحد معبود ودين سماوى خاتم، إيمانا كاملا، وبديانات سماوية أخرى نزلت على رسل كرام من قبل، ونلقى تقديسنا، مع معرفتنا بما دخلها من تحريفات العصور ... أن نؤمن بذلك كله، ونتجه إلى السماء، وإلى الله وإلى مدبر هذا الكون العظيم ... هذا هو الحل الأوحد الـذى جـاء بـه القرآن الكريم. من أجل القضاء على هذه الأزمة الروحية، وعلـى آثارهـا المدمرة على الإنسان، ومن أجل أن يعيش على الأرض مطمئنا سعيدا، ينعـم بخلافة الله وبرضائه، وبسعادة الدنيا والآخرة من قبل ومن بعد، فلا تـوزع نفسه شياطين الإنس والجن، ولا بلابـل الوسـاوس والأفكـار والتيـارات المنحرفة، التى لا تأتى على شىء إلا جعلته كالرميم، فذلـك جميعـه هـو الطريق المستقيم، والصراط السوى.

فالإنسان فى القرآن الكريم - كما يقول العقاد - طهو الخليفة المسئول بين جميع خلق الله، يدين بعقله فيما رأى وسمع ويدين بوجدانه[١] فيمـا طـواه

الغيب، فلا تدركه الأبصار والأسماع والإنسانية من أسلافها إلى أعقابها أسرة واحدة لها نسب واحد وإله واحد"[1] بل ولها دين ترجع إليه، وكتاب تؤمن به، وتجعله بين يديها نورا تمشى به فى ظلمات الحياة.

لا علاج إذن لأزمة الإنسان الروحية إلا أن يكون مؤمنا بالدين، والدين ينطوى تحت منهاجه الإيمان بالله وكتبه واليوم الآخر، وهذا الإيمان هو المنبع للضمير الإنسانى، ولكل القيم الأخلاقية السامية، مما يفرض على الإنسان تمثل الله فى كل خطوة، وكل قول وكل عمل دائما أبدا.

- ٣ -

وثانى أزمات الإنسان المعاصرة: أزمة الحرية، فقد صار الإنسان المؤمن بحريته يزعم أنه هذه الحرية تأبى عليه أن يقيد نفسه بمذهب أو دين أو أعراف، بل صار يزعم أن له أن يفعل ما يشاء، وإن أضر بالآخرين أو بنواميس المجتمع الذى يعيش فيه.

والقرآن الكريم، يجعل للحرية حدودا، ولأوامر الدين حتمية الإيمان بها واتباعها والسير على منهجها، لكى يضمن الإنسان سعادته فى الدنيا والآخرة، فلا حرية بلا حدود وبلا قيود، ولا إطلاق للحرية إذا ما أضرت بحريات الآخرين؛ فالإنسان ليس حرا يقتل أو يسرق أو يرتكب الكبائر والصغائر كما يشاء، ولكن حريته تمنعه أن يغتال حريات الآخرين، ولا يمكن أن ترفض نواميس الشرائع بحجة أنها قيد على الحرية إن ذلك الزعم الباطل عبث لا معنى له، والزاعمون لهذا المنطق الفاسد هم المفسدون فى الأرض، فالقرآن الكريم، بل وجميع نواميس الحياة تفرض القيود على حريات الفرد لصالح المجتمع، حتى لا تصبح الحياة فوضى لا نهاية لشرورها.

وإذا كانوا فى الحديث عن الفن يقول النقاد: لا فن بلا قيود. أفما يصح أن تقول ذلك أيضا هنا، لا حرية بلا قيود. إن الناس لو فهموا ذلك لما

---

[1] الإنسان فى القرآن الكريم للعقاد طبعة هيئة الكتاب العامة مصر مكتبة الأسرة.

سمعنا أن ابنا أو بنتا يواجهان أباهما أو أمهما أو ولى أمرهما بأنهما أحـــرار يفعلون ما يشاءون.

إن هذه الحرية التى أعطاها القرآن الكريم للإنسان لا يصح أن تكون مسوغا لاغتيال حريات الآخرين، ولا مبررا لتدمـــير الحيـــاة والمجتمعـــات والشعوب فالشريعة حقوق وواجبات، ومن الحتم العمل بمنهجها كاملا غـــير منقوص والله تعالى يقول فى محكم كتابه: إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانـــات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نعما يعظكم بـــه إن الله كان سميعا بصيرا[1].

ويقول : إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى[1].

لقد حل القرآن الكريم أزمة الإنسان المعاصر حلا كـــاملا، الأزمـــة الروحية والدينية والخلقية والاجتماعية جميعا بما يضمن ســـعادته، وســـعادة الحياة والناس من حوله.

ولقد شرع القرآن والإسلام الحرية، ولم يشرعا الرق، وشرعا وسائل الحرية، وجعلالها ناموسا واجب الاتباع والعمل.

بل وجعل القرآن الكريم الحرية حقا من حقوقهم الإنسان، التى يجـــب ألا يحرمه منها أحد.

إن أزمة الحرية لا تعيش، بل ولا توجد، مع وجود تعاليم الإســـلام، الذى يفرض العدل فرضا، ويمنع الحاكم والقوى والغنـــى أن يحولـــوا بيـــن الإنسان وحريته، أو أن يستبدوا بالآخرين، والدين بفرض القانون الإســـلامى فرضا على الناس كافة.

---

[1] ٥٨ النساء.

[1] ٩٠ النحل.

ومما يتصل بأزمة الحرية مشكلة الجنس التى قضى عليها القرآن الكريم قضاء كاملا بما سن من تشريعات لنظام تكوين الأسرة وحقوق الزوجة والأبناء والأقارب، والزواج والطلاق والمواريث والحضانة والنفقة.

ولا يوجد فى الأديان دين يولى كل ذلك القسط الأكبر من رعايته سوى الإسلام وكتابه المنزل، والقرآن الحكيم.

- ٤ -

وثالث هذه الأزمات التى يواجهها الإنسان المعاصر : الأزمة المادية وهى أكثر الأزمات التى يجابهها القرآن الكريم أو التى جابهها فى الماضى، ويجابهها فى الحاضر، ويظل يجابهها فى المستقبل، وليس هناك حل غير حل القرآن الكريم لهذه الأزمة العاتية.

لقد حارب القرآن الفقر حربا عادلة دون هوادة وفرض نظام الزكاة والصدقة والإحسان ونظام الوقف والوصية، والشركات والمزارعة، والمضاربة، وحرم الربا والاحتكار والغش وأكل أموال الناس بالباطل وحرم الفساد فى الأرض، ودعا إلى التكافل الاجتماعى، والأخوة الإنسانية، وجعل للجار حقوقا يجب أن تؤدى ، وفرض صلة الرحم، ورعاية المرأة والعامل والخادم والمسكين واليتيم والمريض والعاجز عن العمل والأسير والضيف والغريب، بل والمسافر المنقطع عن ماله.

ولقد روى لنا التاريخ أن الخليفة عمر بن عبد العزيز لم يجد من يأخذ الزكاة من مستحقيها، وأن الناس عاشوا جميعا فى رضى وقناعة واكتفاء من دون أن يسيطر عليهم شبح الحاجة والعوز والفقر المخيف. وتبارك الله رب العالمين فيما يقول فى كتابه الحكيم:

"ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض"[1].

لقد حل القرآن الكريم جميع المشكلات الاقتصادية التي يواجهها الإنسان، وها هو ذا مفكر فرنسى كبير مثل جاك استروى يقول فى كتابه "الإسلام أمام التطور الاقتصادى" الذى نشر فى باريس ١٩٦١ فى الصفحة ١١٢ ما نصه : إن الإسلام يتمتع بإمكانيات هائلة، وإذا ما وجد الطريق الصحيح مفتوحة أمامه فإن كثيرا من الصعوبات الاقتصادية سوف يحلها هو وحده، وهو أقدر على ذلك من غيره من معاهد مذاهب الروسية والغربية على السواء.

ولقد حرم الإسلام الربا، وأكل أموال الناس بالباطل، كما حرم الاحتكار والاستغلال والنهب لأموال الناس.

كما حرم السرقة والعدوان على المال بأية وسيلة غير مشروعة، وجعل دفاع الإنسان عن ماله كدفاعه عن دينه وعرضه، دفاعا مشروعا.

– ٥ –

ورابع هذه الأزمات التى يجابهها الإنسان المعاصر هى الأزمة السياسية، فالشعوب والدول يحكم كلا منها نظم سياسية متضاربة متصارعة ذات اليمين وذات الشمال ويتحكم فيها حكومات مختلفة المذاهب والأيديولوجيا والتيارات، وجاء القرآن الكريم ففرض على المسلمين جميعا منهجا سياسيا موحدا وكاملا أساسه الشورى والعدل والتزام الأمانة وإعطاء ما لله لله وما لقيصر لقيصر وليس لحاكم فى الإسلام أكثر مما للمحكوم، والحاكم عامل كبقية العاملين فى الدولة، له أجره لا يتعداه إلى أموال الأمة بحال وعليه السهر على المحافظة على حقوق الناس، وفى الحديث الشريف

---

[1] ٩٦ الأعراف.

كما رواه الصحيحان : كلكم راع وكلكم مسئول عـن رعيتـه: الإمـام راع ومسئول عن رعيته إلخ"، احترام إنسانية الإنسان، وحقوقه كاملة أهم واجـب من الواجبات على ولى الأمر وهو مبدأ من مبادئ الإسلام، إلى واجب سهره على تنفيذ القوانين وعدم مخالفة أجدلها صغيرا أو كبيرا بحال من الاحـوال. وهذه هى الديمقراطية الحقة، والسياسة الرشيدة، والحكـم الصـالح. الـذى يفرض المساواة بين الناس جميعا، ويجعل الإخاء والمودة والتعاون و تكـافل الاجتماعى شريعة، ويسهر على أمن المجتمع وأمانه سهرا دائما. وبو زع من الدين والضمير والقوانين والقدوة الحسنة يقضى على الأزمات الخلقية التـى تنشب فى المجتمع وتظهر آثارها السيئة بين الحين والحين، المساواة تامـة بين الناس جميعا، يدعو الله فى القرآن المسلم والبشر جميعا أن يشـعر كـل منهم بالمساواة التامة بينه وبين إخوانه من الناس... طهارة الحكم وطـهارة الحاكم والأمانة التامة والالتزام بالمسئولية، كل ذلـك مـن وسـائل عـلاج الأزمات السياسية، التى عالج بها الإسلام والقرآن معاناة الشعوب والجماعات والأفراد، والتى تحرص كل الحرص على احـترام الطفولـة والشـيخوخة والمرأة والعامل واليتيم والمريض والمسكين والعـطل عن العمـل احترامـا كاملا وترعاهم الرعاية التامة فالمحافظة على جميع حقوق الإنسـان هـى أساس الحكم والسياسة فى الإسلام وبهذا "صنع القرآن قادة لا جبابرة[1].

- ٦ -

وخامس هذه الأزمات: أزمتنا مع الحضـارة: أهـل نسـير وفـق حضارتنا الإسلامية وتراثنا القديم من الآباء والأجداد، أو نسير وفق الحضارة الغربية بكل أبعادها ونظمها التى نشاهدها كل لحظة.

---

[1] ١٣٣ من هدى القرآن أمين الخولى القاهرة.

الحضارة الإسلامية تقوم على أساس قوى من الدين والعقيدة والتوحيد والإيمان، بينما تفرغ الحضارة الغربية الإنسان من الدين والعقيدة، وتجعلـه عبدا لشهواته وملذاته، للمرأة والجنس والمال.

حضارة الإسلام حضارة روحية تؤمن بـالمثل والقيـم والأخـلاق والنواميس الشريفة، وحضارة الغرب لا تؤمن إلا بالقوة والجنس والمال.

إن لنا نتساءل مع المتسائلين: هل يؤمن عقل الإنسان بالدين فى هـذا العصر ويرى دينا أحق بالإيمان به من الإسلام؟

ولماذا لا يؤمن عقل الإنسان بالقرآن، ورجال الفكـر فـى الشـرق والغرب يؤمنون كل يوم به، إيمانا صادقا دون زيف أو رياء أو خـوف. إن خضوع العربى المسلم لحضارة الغرب، ووقوعه تحت سيطرتها الكاملة، مما جعله يواجه معضلات ومشكلات هائلة وخطيرة فـى السياسـة والاجتمـاع والاقتصاد والعلم، لا يدرى كيف يتفاعل معـها فـى علاقاتـه الداخليـة والخارجية على السواء.

إن حضارة الغرب لا أساس لها. مادة بلا روح، وأهواء بلا عقيـدة، وليست تنطوى على أية نزعة إنسانية أو خلقية، وهى تقف كل لحظة أمـام أبواب الفناء الذرى.

يقول إقبال:

"مثلت حضارة الغرب دورها، وقد شاخت وهرمت، وأينعت كالفاكهة وحان قطافها، وسوف ينهار العالم الذى حوله مقامرو الغـرب إلـى حانـة للفساد، ولقد رأت أوروبا بعينيها النتائج المخيفة لمثلها الاقتصادية والأخلاقية والعلمية، ولسوف تتمخض الإنسانية عن عالم جديد، وهذا العالم لا يحسـن تصميمه إلا من بنى للبشرية البيت الحرام، وورث محمدا وإبراهيـم قيـادة العالم".

إن حضارة القمار والربا والمكيافيللية الشريرة، والأيدلوجيات المختلفة والتفرقة العنصرية البغيضة، والاستعمار الوحشى البربرى، حضارة العرى - والإباحية، والعلمانية والمادية ، حضارة استعباد المرأة باسم تحريرها ... لا مكان لها فى قاموس المثل والقيم الشريفة، ولا وجود لها فى ظلال الإسلام والقرآن، وكل عنصر شريف فى حضارة الغرب فهو منا وإلينا.

الحضارة الغربية بكل طاقاتها ووسائلها وابتكاراتها، وبكل فلسفاتها وأيديولوجياتها ومذاهبها، من الرصاصة إلى القنبلة الذرية والهيدروجينية والفلكية أخيرا، إلى الصواريخ الجبارة التى تنتظر التحليق فى السماء. ثم بكل ما ينشأ من أجل نموها وبقائها من جامعات ومصانع وشركات ومؤسسات، وما يرصد لها من أموال واستثمارات وثروات وكنوز منهوبة.

هذه الحضارة هى أو هائل مفزع يحسب حسابه فى لغة الأعداد ولغة القوة، ولكنها مع ذلك، وكما نؤكد ، هن من بيت العنكبوت.

ذلك أنها بناء بلا أساس، وجسم من غير روح، ومادة دون عقل، وسلوك خاص بلا عقيدة. هى لا تنطوى على نزعة إنسانية أو خلقية، حتى لنراها يدمر بعضها بعضا ويحطم جانب منها جانبا آخر، وإذا كانت هذه الحضارة قد يسرت الحياة أمام الإنسان فإنها قد رجعت به القهقرى إلى حياة الغاب.

وعلى أن رأس المال الضخم الذى يدعم هذه الحضارة لا يرهبنا، ففى الإمكان أن يكون لنا مثله، وخيرات بلادنا وكنوزها تمثل قسما منه، وقسم آخر هو ثمرة العقل واستغلال نعم الله فى الأرض، ولا يعجزنا المسير مع الغرب فى هذا الميدان فلنا من العقل مثل ما لغيرنا سواء بسواء. أما القسم الثالث من رأس المال هذا فهو من صنع الربا والاحتكار، وبسببه يسلط

الله الحروب على الأرض لتبتلع هذه الأموال الحرام، ويرسل عليها شـــواظا من الخوف فهى فى السلام فى خوف من الحرب كخوفها من الحرب ذاتـــها، وما ينفق فى صنع مركبة قمرية مثلا من أموال طائلة كان يمكن أن يكـــون وسيلة سعادة ورفاهية للملايين المحرومة.

ومع ذلك فنحن لا يغيب عن تفكيرنا أن هذه الحضارة الغربية قد نال منها الهرم ودبت فيها الشيخوخة وأخذت تقترب من حافة الفناء.

يقول بول فاليرى الشاعر الفرنسى الكبـــير[1]: فرنســا ، إنجلــترا، روسيا، ويا لها من أسماء كانت جميلة، كما كانت أسماء عيلام ونينوى وبابل جد جميلة، ولحاق هذه الأسماء الراهنة بأسماء الأمس الغابر لم يعـــد شـــيئا مستعصيا على الإدراك.

ويقول فولنى من كبار رجال الفكر الأوروبى:

ماذا أصاب تلك البدائع الراهنة التى حققتها يد الإنسان؟ أين هـــى حصون نينوى وجدران بابل؟ ومن يدرى؟ لعل مسافرا فى المســـتقبل يجـــد نفسه عند شواطئ السين والتايمز يجلس باكيا فوق بقايا الفتات الذى تحولـــت إليه معالم الحضارة حول هذه الأنهار.

ويعجب دنيس دورجمون من العدد الذى يتضاعف بصورة مســـتمرة من الأوروبيين القائلين بانهيار الحضارة الغربية، ومـــن المتنبئيـــن الذيـــن يفضلون الحديث عن كشوفها، وصدق الله العظيم فيما يقول فى الآية: (حتـــى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها آتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس)[2]. فالمعنى على هذا هـــو

---

[1] المتنبئون بالسقوط – مقال لرمضان لأوندى - البلاغ الكويتية عدد ٢٧ رمضان ١٩٧٠.

[2] ٢٤ يونس.

فناء حضارة عجيبة من حضارات الحياة الدنيا كانت قد بلغت غايــة نمائــها وازدهارها، بأمر الله وقدرته فى لحظة من ليل أو نهار.

وما يقوله إقبال وغيره يقوله كذلك مفكرو العالم وفلاسفته كل يوم فى كل يوم فى كل مكان[1]. ونحن نعلم أن ميزان القوة فى العالم متغـــير أبــدا وعلى امتداد التاريخ، ومن ذاك الذى كان يتصور إمكان تصفية قوة ألمنيا أو روسيا العسكرية أو الإمبراطورية البريطانية العتيدة؟

ويقول بعض الكتاب: إنا لا أعتقد أن نسبة ما يملكه العالم الإســلامى اليوم إلى حضارة الغرب الراهنة أقل من نسبة ما كان فى أيدى أسلافنا إلــى ما كانت تملكه الحضارتان الفارسية والرومية بعد ظهور الإسلام[2].

وأين هذا كله من القيم الروحية والإنسانية الرفيعة التى قامت ونــادت بها حضارة الإسلام، التى حررت الإنسان من العبودية والخضـــوع للفــرد وللمجتمع[3]. ولن تجد الإنسانية يوم تتهاوى حضارة الغرب عقيدة تؤمن بها، ونؤمن بها مصيرها إلا الإسلام، فالإسلام وحده والإيمان به ســـوف يكــون ضرورة بشرية، لأن ذلك هو مسيرة التاريخ وحتمية انتصار الحضارة، وهو العلاج الوحيد لكل مشكلات الحياة، وهو النتيجة الأخيرة لقدرة الإنسان علــى مواجهة التحديات التى يتحداها بها عصره وقدره.

على أن حضارة الغرب إنما هى فى أصولها العلمية والفكرية صـدى كبير لحضارة الإسلام وللفكر الإسلامى، فلقد سرقت أوروبا على غفلة منــا كنوزنا ومواريثنا العلميــة والفكريــة والحضاريــة مثلمــا ســرقت كذلــك

---

(1) راجع : الحضارة الإسلامية، والإسلام والمدنية. وهما للمودودى.

(2) راجع : المثل الأعلى للحضارة العربية لمحمد البهى.

(3) راجع : شمس العرب تسطع على الغرب تأليف هونكة، ونحن والحضارة الغربية للمودودى، والحضارة الغربية لمحمد محمد حسين.

إمبراطورية المسلمين الكبرى الممتدة فى كل مكان وأقامت على كـــل هــذه الأسس حضارتها الماثلة اليوم.

يقول غوستاف لوبون فى كتابه "حضارة العرب":

"أوروبا مدينة للعرب بحضارتهم، فالعرب هم الذين فتحوا لـــها مـــا كانت تجهله من المعارف الفلسفية والعلمية والأدبية، فكانوا ممدنين للغـــرب وأئمة له ستة قرون، وعن طريقهم اهتدى الغرب إلـــى تـــراث الإغريـــق، وكشف ماضيه فأخذ يبحث عنه..

وتقول المستشرقة الألمانية هونكة: كل موجة لعلم أو معرفة قدمـــت لأوروبا كان مصدرها البلدان الإسلامية[١] .

الإسلام عقيدة متكاملة، وحضارة متجددة، نابعة مـــن منـــهج ســـليم مترابط، إنه ليس له صلة بأى مذهب من المذاهب المعاصرة، ولا تستطيع أن تقيسه بالرأسمالية ولا العمالية ولا الديمقراطية ولا الديكتاتورية، ولا غير ذلك من المذاهب، ولا تستطيع كذلك أن تزنه بأى مذهب منها.

إنه مذهب كامل صالح لكل زمان ومكان، وهو شـــريعة الله المثلـــى الوسطى الخاتمة للشرائع وللرسالات السماوية، وهو دين بقى كتابه المـــنزل من السماء خالدا محفوظا فى الصدور والصحف منذ نزل هذا الكتـــاب مـــن السماء إلى اليوم.

ولا يستطيع مسلم أن يقول إنى مسلم إلا إذ عمل بهذه الأصول كلـــها والتزم بها التزاما تاما دون حيدة عنها، أو خـــروج عليـــها. وفـــى حـــدود الأصول: العقيدة والمنهج. ليس له أن يخرج عن هذا الإطار السماوى ليـــأتى بإطار آخر يضعه بنفسه ثم يفرضه عليها، ثم يدعى أنه مسلم. لقد قضـــى الله عز وجل، وشرع لنا العقيدة والمنهج فليس لنا خيار فيها، والله عز وجل يقول

---

[١] عالمية الإسلام- انور الجندى-سلسلة اقرأ- العدد٤٢٦.

فى كتابه الحكيم فى سورة الأحزاب: "وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعصى الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا".

وليس معنى ذلك أن نرفض الحضارة الغربية جملة.

فنحن محتاجون إليها فى ميدان العلوم والصناعات والاكتشافات الكونية ويجب أن تأخذ بما أخذ الغرب به نفسه من ثمار ابتكاراتها فى استغلال خيرات الأرض للإنسان، وفى ميدان التفوق الحربى وفى كل ما يعود بالخير على الإنسان.

أما فى العقائد والتقاليد والأعراف والربا والأخلاق والإباحية والإلحاد فكلا وألف كلا ... بل ونحن نحذر المسلمين منه تحذيرا شديدا.

يقول أنور الجندى فى كتابه عالمية الإسلام، ليس مفروضا على أية أمة تلتمس من نتاج الحضارة العالمية شيئا أن تأخذ معه فكر أمة أخرى أو عقائدها أو سلوكياتها[1].

إن التوجيه القرآنى إذا ينشد الحضارة الصناعية القائمة على العلم التجريبى بغية تمكين الإنسان من سيادته على الكون ينشد العلم الدقيق بالكون أيضا.

وبعد فهذا هو منطق القرآن والإسلام فى علاج أزمات الإنسان المعاصر إنه منطق الخير والنور والهداية والإصلاح والتجديد والبناء.

منطق الطهر والصفاء والطمأنينة النفسية والروحية، منطق الإيمان والالتزام بالمسئولية والأمانة التامة والشرف الذى لا حدود له.

-٧-

وأخيرا أورد هذه الإحصاءات..

---

[1] عالمية الإسلام - أنور الجندى - سلسلة اقرأ - العدد ٤٣٦.

إن كلمة الإنسان ذكرت فى القرآن الكريم ستا وستين مرة وذكـــرت مشتقاتها كثيرا.

فالإنس جاء فى تسعة عشر موضوعا وكلمة أنــــاس وردت خمـــس مرات "وأناسى وردت سبع مرات. "إنسى" مرة واحدة.

الإنسان بكل نزعاته وأفكاره وبكل ما فيه من طبيعة الإنسانية التـــى انتصر لها إبليس فى حواره مع آدم عليه السلام، وأبى آدم عليه ذلـــك لأنـــه يؤمن بالله وبالدين وبهدى السماء.

لقد ذكر الله عز وجل طبيعة الإنسان الذى لم يهذبه الدين ولم يــــهتد بنور الوحى، ذكره الله عز وجل بالأوصاف الحقيقية له!

- وكان الإنسان كفورا ٦٧ الإسراء.
- إن الإنسان لظلوم كفار ٣٤ إبراهيم.
- إن الإنسان لكفور مبين ١٥ الزخرف.
- قتل الإنسان ما أكفره ١٧ عبس.
- وكان الإنسان عجولا ١١ الإسراء.
- خلق الإنسان من عجل ٣٧ الأنبياء.
- لقد خلقنا الإنسان فى كبد ٤ البلد.
- وكان الإنسان أكثر شيء جدلا ٥٤ الكهف.
- وكان الإنسان قتورا أى شديد البخل ١٠٧ الإسراء.
- إنه كان ظلوما جهولا ٧٢ الأحزاب.
- إنه ليؤوس ٩ هود.
- إن الإنسان لفى خسر ٣ العصر.
- إن الإنسان خلق هلوعا ١٩ المعارج.
- إن الإنسان لربه لكنود ٦ العاديات.

وذكر القرآن الكريم طبيعة الإنسان فى طلب الخير لنفسه:

- لا يسأم الإنسان من دعاء الخير ٤٩ فصلت.
- إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى ٧،٦ العلق.

وذكر موقف الإنسان أمام الشيطان:

- إن الشيطان كان للإنسان عدوا مبينا ٥٣ الإسراء.
- وكان الشيطان خذولا - أى شديد الخزلان لمن يستعين به - ٢٩ الفرقان.
- كمثل الشيطان إذ قال للإنسار أكفر ١٦ الحشر.
- إن الشيطان للإنسان عدو مبين ٥ يوسف.

وذكر القرآن الكريم خلق الإنسان فى أحسن تقويم ٤ التين.

كما ذكر القرآن الكريم حساب الإنسان فى الآخرة فى آيات كثيرة.

وكما ذكر الإنسان بحقوق الوالدين عليه فى مواضع عدة.

هذا هو الإنسان فى القرآن الكريم.

وبعد فهذا هو كتاب الله ووحيه الأمين، القرآن الحكيم، وموقفه من علاج أزمات الإنسان المعاصر.

إنه الإيمان، ثم الإيمان ، ثم الإيمان. يقول جراهام جرين أديب إنجلترا: الإيمان أكبر علاج لأمراض الشباب ... وأقول : بل لأمراض الإنسانية جمعاء.

مصادر البحث

- رسالة التوحيد للإمام محمد عبده- كتاب الهلال الشهرى - يوليو ١٩٨٠ - العدد ٣٥٥.
- الإسلام دعوة عالمية - العقاد (كتاب الهلال ٣٧) نوفمبر ١٩٩٧.
- الإنسان فى القرآن الكريم - العقاد - ط هيئة الكتاب العامة مكتبة الأسرة،١٩٩٧.
- الإسلام والحضارة الإنسانية - د. محمد البهى كتاب الهلال ٢٦٤.
- عالمية الإسلام - أنور الجندى - سلسلة اقرأ ١٩٧٧.
- الإسلام والإنسان المعاصر - فتحى رضوان - اقرأ - ٤٠٦.
- الإسلام والعصر - لصاحب هذا البحث - ١٩٩٣ - المطبوعات العربية الحديثة - القاهرة.
- عالمية الإسلام - لرؤوف شلبى - ملحق بمجلة الأزهر ١٤٠٩ هـ.
- عالمية الإسلام - د. شوقى ضيف - دار المعارف - ١٩٩٦.
- من هدى القرآن - أمين الخولى - مكتبة الأسرة - الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- الفلسفة القرآنية - العقاد - كتاب الهلال الشهرى - العدد ٢٢٩ - ١٩٧٠.
- العرب والحضارة الأوربية - محمد مفيد الشوباشى - سلسلة اقرأ - العدد ٤٣٣.
- الثقافة العربية - العقاد - العدد الأول من سلسلة المكتبة الثقافية.
- منهج القرآن فى بناء المجتمع - الشيخ محمود شلتوت.
- إلى القرآن الكريم- الشيخ محمود شلتوت - كتاب الهلال الشهرى - يوليو ١٩٨٣.
- الإسلام وإرث الحضارات لصاحب هذا البحث - ١٩٧٦ - القاهرة.
- الفكر الإسلامى - دار الجبل - بيروت ١٩٩٤.
- منهج القرآن فى تربية المجتمع - رسالة دكتوراه نوقشت فى كلية أصول الدين جامعة الأزهر - للباحث عبد الفتاح عاشور، بإشراف د. عبد الغنى الراجحى - نوقشت فى ١١/ ١١/ ١٩٨٢ - مخطوطة.
- الإسلام بين الشرق والغرب - د/ على عزت بيجوفتش - الطبعة العربية - مؤسسة بافاريا للنشر والإعلام - ترجمة محمد يوسف عدس - طبع مؤسسة العلم الحديث - بيروت.
- الإسلام والحضارة الإنسانية لصاحب هذا البحث - دار الكتاب اللبنانى - ١٩٧٤.

الفهرس

تم بحمد الله